سِلْك شَائِك

رواية

عبد الجواد، خيري .
سلك شائك / خيري عبد الجواد
. ــ ط1 . ــ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2010 .
120 ص ؛ 21 سم .
تدمك : 3 - 619 - 427 - 977 - 978
1 - القصص العربية .
أ ــ العنوان 813
رقم الإيداع : 15341 / 2010

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت - القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : شوال 1431هـ ـ سبتمبر 2010م

تصميم الغلاف الفنانة : هنادي سليط

سِلْك شَائِك

رواية

خيري عبد الجواد

الدار المصرية اللبنانية

هـل كان مقدرًا له أن يلقاها فجأة بعد كل تلك السـنوات، لقد تغيرت الملامـح إلـى حـد كبير حتـى أنه لـم يعرفها في بـادئ الأمر، لكنهـا عرفته أولًا، فقـد كان أبـرز ما يميزه طوله الفارع وشـاربه الكـث، تقابلا لأول مرة في منتصف السـبعينيات، كان هو رئيسًـا لنادي الأدب بقصر الثقافة وقتها، وكانـت هـي مديرة المكتبة، وكان اجتماع نـادي الأدب يعقد يوم الخميس من كل أسبوع، وكان قصر الثقافة الذي بُني حديثًا قد تحوَّل إلى خلية نحل: فهنا فصول لمحو الأمية، وقاعة للكمبيوتر، وأخرى لمكتبة الطفل، ورابعة مكتبة عامة، كانت هي تدير المكتبة العامة، وظل الجميع يبحثون عن مكان يجتمعون فيه ولم يكن غير المكتبة يصلح لذلك، اصطدمت بأعضاء النادي اصطدامًا عنيفًا، فرضت عليهم عدم التدخين، الكلام بصوت خافت، كانت تنظر إليهم نظرة اسـتعلاء، ولم لا وهي خريجة كلية الآداب قسـم اجتماع، ثم إنها من بيئة أرسـتقراطية فهي تسـكن المهندسـين وظروف الوظيفة هي التي فرضت عليها الذهاب يوميًّا إلى هذه الزبالة التي تدعى بولاق الدكرور - كمـا كانـت تحـب أن تطلق عليهـا - وأخيـرًا فإنها جميلة ومحـط أنظار الجميع، كانت تتبختر في مشـيتها وتختال مثل طاووس، عيناها السوداوان

كانتا ترسلان نظرات استعلاء تصل لحد الاحتقار لكل من حولها، أراد هو ألا يصطدم بها في بادئ الأمر، لكنها عاملته بعجرفة فقرر أن يشن حربه عليها، تجاهلها تمامًا، وكان يعرف أنها ترقبه عن بعد، كان يجلس في اجتماع يوم الخميس بنادي الأدب ومن حوله يتحلق الأعضاء، البعض يقرأ قصصًا، آخرون يلقون شعرًا أو نصًا مسرحيًا، وكان الجميع يريدون معرفة رأيه أولًا فكان هو مفتتح الحوار، بعد فترة بدأت تقترب بمقعدها منهم، تستمع إلى آرائه صامتة، وتتعمد ألا تنظر إليه، لكنه فاجأها ذات مرة تتأمل ملامحه سرًا، بينما كان منشغلًا بالحديث، التقت العيون فجأة وتعمد أن ينظر إليها حتى هربت بعينيها وغادرت المكتبة . سوف تخبره فيما بعد، أنها وجدته مغرورًا دون مبرر، وأنها لم تجد داعيًا لهذا الغرور، فمن هو؟، ثم إنه أحد هؤلاء ساكني العشوائيات، وليست به ميزة واحدة تجعله هكذا، من حقها هي فقط أن تغتر، وسوف تخبره بعدها أنها أخذت تسأل عنه سرًا، تتسقط أخباره، من هو؟ ما هي ثقافته ودرجة تعليمه؟ وأنها فوجئت بنفسها تهتم به فجأة. وعرفت أنه سافر إلى أوربا فجأة لحضور مؤتمر، تساءلت متى يرجع، لكنها لم تتلق إجابة ما . لكنه عاد فجأة، وبدأ يواصل حضوره في نادي الأدب، وأخذت هي تقترب أكثر من الشلة وقد لانت ملامحها قليلًا بل إنها أخذت تتودد إليه، تقاطعه فجأة لتسأل سؤالًا، توجه كل حواراتها إليه. سوف تقول له فيما بعد إنها منذ تلك اللحظة بدأت تدب فيها مشاعر إعجاب نحوه، شعره الطويل الأبيض الناعم، شاربه الكث الأسود، حاجباه الغليظان، ملامحه المنحوتة نحتًا، طوله الفارع وقوامه

الرشيق . وسوف تفاجئه ذات مساء بينما يتأهب لمغادرة قصر الثقافة أنها تريده في أمر هام . هز كتفيه وقال لها ببساطة : تحت أمرك . قالت له : ليس هنا أرجوك، سوف أطلبك في التليفون . تساءل مندهشًا : وكيف حصلتِ على تليفوني؟ أجابت بدلال وهي تبتسم : لي مصادري .

في الليل حدثته، قالت إنها تبحث عن كتاب وإنه لو وجده فله الحلاوة. قال لها : إنه عندي فما حلاوته . قالت : حين نلتقي غدًا سوف أعطيك حلاوته فورًا . في مساء اليوم التالي كان لقاؤهما الأول على شاطئ النيل، كانت متأنقة بتكلف وكان هو عاديًّا جدًّا، وكان يحمل الكتاب في يده. قالت : على فكرة أنا لا يعنيني الكتاب في شيء، أردت فقط مقابلتك، ولم أكن أعرف كيف أقولها بصراحة . قال إنه أيضًا كان يريد مقابلتها وراهن على أنها سوف تطلب لقاءه أولًا . اتهمته بالغرور وأنها تحب الرجل المغرور، انثال حديثها ولم تعد هناك قوة تجعلها تتوقف : حدثته عن طفولتها وصباها، أمها وأبيها وأخواتها البنات وأنها لا يوجد لها أخ ذكر، حدثته عن أحلامها وطموحاتها، ثم سألته فجأة : تديني كام سنة؟ كان يعلم من ملامحها أنها تجاوزت الثلاثين، لكنه أراد مجاملتها فقال : ما بين خمس وعشرين لست وعشرين . ابتسمت قائلة: ثمانية وثلاثون، يعني بعد سنتين أكون في الأربعين . قال لها: وأنا أيضًا كذلك بعد سنتين أكون في الأربعين . قالت : أعرف، فقد قرأت حوارًا لك تذكرت فيه تاريخ ميلادك، تعرف، آراؤك جريئة تعجبني. قال لها: أسألكِ سؤالًا يراودني منذ أن رأيتك: لماذا لم تتزوجي حتى الآن، فأنت جميلة، وتحملين شهادة

جامعية، ومثقفة؟ قالت له: رغم أن ذلك من خصوصياتي إلا أني سوف أجيبك عن سؤالك، أولًا أنا أرفض كثيرين يتقدمون لي لأني لا أريد أي جوازة والسلام .

ثانيًا : فإن لي شروطًا في من يتقدم إليَّ لا تعجب الآخرين، ثالثًا وهو الأهم فإن نظرة الرجل للمرأة لا تعجبني بالمرة .

وطلبت منه موعدًا آخر، وتقابلا . كان حديثهما أكثر هدوءًا وصراحة، قالت : إنها منذ أن أصبحت في الخامسة والثلاثين ونوعية الخطاب اختلفت، فلم يعد يتقدم لها شبان صغار، بل متزوجون ولديهم أطفال، وإنها كلما تقدم العمر عرفت أن فرصة زواجها تضاءلت حتى استسلمت للفكرة نفسها الآن، فالجميع ينظرون إليها نظرة تقول أنها على وشك العنوسة، حتى أن أمها قالت لها في إحدى مشاجراتهما إنها أصبحت مثل البيت الوقف، وإن فكرة العنوسة أصبحت تؤرقها، وقالت له أعرف أنك متزوج ولديك أطفال، ولكن هل تستطيع الزواج مرة أخرى؟ ضحك قائلًا: ومن تلك التي ترضى بي؟! حدجت فيه بنظراتها : أنا أتزوجك لو وافقت ودون أية شروط . سهم قليلًا وقد فاجأته، لكنها لم تعطه فرصة : هه .. ماذا قلت؟

ولم يدر ما الذي يمكن قوله في مثل تلك المواقف، فتاة حسناء تعرض عليه الزواج دون قيد أو شرط، شعر بالحرج، وأحست به فقالت : يكفيني أن ألقاك الآن، أما فيما بعد فمن يدري؟ في حديقة الحيوان تقابلا، جلست بجانبه على أحد أرصفة الحديقة، أمسكت يده فجأة وقبلتها أمام الناس،

صعد الدم إلى وجهه وتندى جبينه بالعرق . نظرت إليه مندهشة، هل يوجد رجل متزوج في هذا العالم لايزال يشعر بالخجل؟ أحبت خجله، تعرف، نفسي أحضنك وأبوسك واشم رائحتك، دا انت تجنن . قالت وأخذت تنظر إليه . لماذا تنظرين هكذا، الناس أخدت بالها . قال وأخذ يتطلع حوله . قالت هامسة : أريد أن أشربك . في تلك اللحظة فقط عرف أنه لا يحبها، وأنه هكذا دائمًا مطارد ممن لا يحبهن، هذا هو قدره، وفي نفس اللحظة اشتاق إلى امرأة أخرى، امرأة يطاردها هو نفسه، امرأة عصية على الحب يخضعها لحبه، امرأة كثيرًا ما أتت إليه في الحلم، لكن الواقع يضن بها عليه، أين أنت أيتها المرأة المستحيلة والتي ليس كمثلها امرأة .

***

هذيــان

حين سـمع صوتها للمرة الأولـى في التليفون صعقتـه نبراتها، كانت تطلب مقابلته، عرفته بنفسـها وأن صديقًا مشتركًا أعطاها تليفوناته، أخذت منه موعدًا في مسـاء الغد . وانتهت المكالمة سـريعًا، لكن صوتها أخذ يرن في أذنه، لم يكن صوتًا عاديًّا، كأن نساء العالم جميعهن اجتمعن في صوتها، ومنذ تلك اللحظة، أطلق تخيلاته وراءها، لابد أن يكون وراء هذا الصوت جمال من نوع خاص، مميز، فريد، ولابد أن يكون قوامها ممشوقًا، مياسًا، بشرة صافية، نقية، ليست بالقصيرة ولا بالطويلة، هذا الصوت لامرأة وافرة الحسـن تجسـدت، أقرب إلى الكمـال، حلم بها من صوتهـا، ومن صوتها تجسدت ملامحها كأجمل ما تكون .

صوتها

في صوتها رقة رفرفة طائر وليد

في صوتها صفاء سموات وأعماق أرض وعمق محيط

نسـمة ربيعية هفهافة، لحظة خلق أسـطورية، تموجـات رقراقة للحن سماوي .

يا مساء الغد، هل تأتي لأسمع صوتها وأرى كونها؟

فـي المسـاء، وقبل أن تأتـي بلحظات أحـس بها، وتأكد لـه أنها على وشـك الانبثاق أمامه، كأن حضورها سبقها، كان الهواء يشع خطرًا ما، هذا الخطر كان نذيرًا بقدومها، ونذيرًا بأشـياء أخرى سوف تحدث، تكهن بها، لكنه لم يدركها في حينها . عربة سـوداء تهادت ووقفت أمامه فجأة، كانت هي جالسـة في الخلف، بينما السـائق وقف ينتظر نزولها، رنت إليه قبل أن تخطر نحوه، عرفها قبل أن تمد يدها تسلم عليه، تمامًا كما تخيلها بالضبط، وأحس نشـوة مفاجئة، نشـوة خَلْقِه لصورتها كاملة مكملة. جلسـت بجانبه وبدآ حديثًا لن ينتهي، بعد أن ودعته وذهبت، وحين رجع إلى البيت حدثها تليفونيًّـا، صوتهـا سـحره، قال لها بلا مقدمـات : هل تعرفيـن، أنت أجمل صوت سمعته في حياتي، زقزقت فرنت زقزقتها في قلبه فخفق. قال لها أنا تخيلتك قبل أن تأتي امرأة ليست ككل النساء كما قلت في إحدى رواياتي، امـرأة ظللت أبحث عنهـا في رواية كاملة، وها أنا أهتـدي . وللمرة الأولى يكـون نزار هو رسـوله إليهـا، لم يكن يتخيل أن لنـزار كل هذا الحضور في نفسـه، لقد قرأ له في فترة مبكرة من حياته، كان يلهمه بكتابة رسـائل غرامية إلـى مـن أحبهن ولم يكن يتصور أنه يحفظه، اسـتعار أبياتًا تعبر عن المعنى الذي يريد . قال لها :

حَديثُكِ سِجَّادةٌ فَارسيَّة

وَعَيناكِ عُصفُورَتَانِ

دِمشْقِيَّتانِ

تَطيرَانِ نَحوَ الجِدارِ ونَحوَ الجِدَار

وَأَنَا ...

وهنا أمسك عن الكلام ولم يكمل، كان يريد القول بأنه أحبها، لكنها المرة الأولى التي يراها، وربما هي لم تنتبه لوجوده أصلًا، جاءت إليه للمساعدة في دراسة المكان الذي هو خبير به، أليس أحد سكانه؟! بل إنه بشكل أو بآخر يعتبر نفسه مؤسسًا له، يعرف تاريخه وكل خباياه، أحجاره وبناياته، أزقته ودروبه وحواريه وشوارعه، خططه قديما وحديثا، ناسه : العائلات القديمة ومن وفد حديثًا . أخذ منها موعدًا آخر، انساب الحديث بينهما لينا هينًا، حكى لها عن نشأته الأولى، تجاربه، ولادته الأسطورية، أراد البوح والفضفضة لها هي تحديدًا، هو الكتوم المرتدي أقنعة شتى، سقطت فجأة كل أقنعته وأفاض، لم يعد هناك ما يمسكه عن البوح، حتى أدق أسراره عرفتها من الجلسة الأولى، عرفت اسمه الخفي والمعلن، أحب أسمائه إلى نفسه، من فمه خرجت روحه لتختفي بين تخومها، تختبئ بين شراييها، تتعطر بأنفاسها، تحوم حول جسدها الأثيري، شعرها البني القصير الناعم، تندس بين نهديها الصغيرين النافرين وقد بديا خلف بلوزتها البيضاء مثل فرخي زغاليل حمام، ها هي تجلس أمامه بعينيها السوداوين إذ تتطلعان إليه في صمت، تسمعه بإمعان، تقول بين لحظة وأخرى (ها)

طويلة ممطوطة كأنها لن تنتهي، (ها) كأجمل ما تكون التنهيدة إذ هي تخرج من أعمق منطقة في القلب، (ها) آهة عاشقة في لحظة بلوغ ذروة نشوات الصبابة والوجد، سوف يخبرها عبر التليفون أن تنهيدتها أذابته، وأنها أسقطت كل أقنعته. تقول له: هي لازمة من لازماتي فيطلب منها تكرارها، ألا تقول له غيرها؟! فتضحك بطفولية وتكررها له فيسقط صريع آهتها .

قالت له : هذيانك جميل. فرد عليها: إنه الحب يا حبيبتي ، وأسعفه نزار فقال:

لَوْ كُنتِ يَا حَبيبتي بِمسْتَوى جُنوني

لَرَميتِ مَا عَليكِ مِنْ أَسَاوِر

جَواهِر

وَنِمتِ في عُيونِي

وللمرة الأولى أحب صوته هو، بعد أن قالت له أحب سماع صوتك، صوتك جميل. فتمادى، وأطلق آهاته هو الآخر، قال لها هل تأتين عندي، ولدهشته فقد رحبت، هيأ له خياله سيناريوهات مختلفة لذلك اللقاء المرتقب.

***

تأخرت ثلاث ساعات عن موعدها، وأخيرًا دق جرس الباب، وخطت داخل الشقة، وجهها إلى حجرته، جلست وفردت قدميها أمامها ببساطة،

كانت ترتدي بلوزة بيضاء على بنطلون جينز، أخذت تتأمل حجرته وسألته فجأة: أين أسرتك؟ سافروا فجأة. أجاب، وسألها: تشربي إيه؟ شاي بالنعناع. حدثها عن نفسه، عن تاريخه السري الذي لا يعرفه أحد، وتساءل بينه وبين نفسه: لماذا يبوح لها بسر أسراره؟ وهمس لها: هل تعرفين لماذا؟ لأني ومنذ أول ثانية سمعت صوتك أحببتك قبل أن أراك، هل تؤمنين بالحب من أول همسة، فالأذن تعشق قبل العين أحيانًا كما يقول الشاعر القديم. قالت: أنا لا أنكر ميلي نحوك ولكن لا يمكن الجزم بأني أحب، أنا حتى لا أعرف هل يمكن تسمية هذه المشاعر بالحب، وما هو الحب؟ قل لي ها، هي تراوغه منذ الدقيقة الأولى، استدعى كل مفاهيم وتعاريف الحب التي عرفها أو تلك التي قرأ عنها، لكنها هزت رأسها غير موافقة، ثم أردفت: أنا طبعًا لا أنكر تلك العاطفة من منطلق مفهوم أخلاقي، ولكني لا أعرف حقيقة ما هو الحب، ربما إعجاب، استلطاف، لكني لا أتصور أنني أحبك. قال لها: ولكنني أحبك. قالت: هل بهذه السرعة يجيء الحب! ربما أنت معجب بي، ولا أنكر أنني معجبة بك ولكني لا أستطيع إقامة علاقة معك لا لأسباب أخلاقية أو دينية إنما لأني مرتبطة باسم زوجي الذي أُكنُّ له احترامًا، فعلى الرغم من أننا اتفقنا على الانفصال، فإننا أصدقاء .

في التليفون سوف يقول لها: أحبك حُبَّين. وسوف يقول لها: وحشني سماع صوتك. وسوف تقول له: صوتك حلو أحب سماعه. وتقول له: حدثني كثيرًا فأنا مصغية إليك. ثم تقول له: وما فائدة هذه العلاقة، فأنا سوف أسافر غدًا إلى لندن، فقد وصلنا إلى مفترق طرق .

***

في الساعة السابعة صباحًا، صحا من نومه على صوت الممرضة تدعوه للصحيان، أخذته من يده وسارا معًا إلى حجرة مدير المستشفى، دخل ووقف أمام مكتبه بينما المدير أخذ يتطلع إلى ملف أمامه، ثم نظر إليه قائلًا: ما اسمك؟ هز كتفيه دون أن يجيب، ألا تتذكر اسمك؟ أليس مكتوبًا عندك؟ كان المدير يقلب في الأوراق التي أمامه وهز رأسه يمينًا ويسارًا: في الحقيقة شيء محير، أوراق ملفك خالية تمامًا من أية معلومات عنك لا يوجد سوى تاريخ دخولك المستشفى منذ خمس سنوات، الاسم: لا يوجد، السن: لا يوجد، الحالة الاجتماعية: لا يوجد، تشخيص المرض: حالة فصام واكتئاب نفسي هذا ما يوجد في أوراقك؛ لذلك أريد منك أن تساعدني، فلا يوجد الآن ما يستدعي إقامتك في المستشفى ولابد من خروجك، ولكن كيف ولا توجد لديك أية أوراق تحقيق شخصية أو عناوين أقربائك أو من الذي جاء بك إلى هنا. تعلم طبعًا أن هذا مستشفى عسكري وهذا هو أول الخيط، هل تذكر في أي كتيبة كنت أو أي سلاح؟ هز كتفيه وظل صامتًا يتطلع إلى المدير وهو يلقي عليه الأسئلة. هو حقًّا لا يذكر من الذي جاء به إلى هنا ولأي غرض، ومنذ متى؟ وللمرة الأولى يعرف أن له خمس سنوات في هذا المستشفى النفسي، ما الذي حدث له طول تلك السنوات الخمس، وهل صحيح أنه لا يذكر اسمه أو أي شيء من حياته السابقة؟ وضع يده على جبهته فقد أحس صداعًا رهيبًا يجتاحه وشعر بدوخة. أحس المدير بما يعانيه فطلب منه الجلوس: شوف يا .. أيًا كان اسمك، أنت إحدى الحالات النادرة في هذا المستشفى، ولا أدري لأي سبب أنت هنا؛ لذلك فسوف نقوم ببعض التحريات عنك، إما في

السـجلات العسكرية أو سـوف أسأل أنا - بشكل مباشـر - المدير السابق لهذا المستشفى، ربما يكون لديه معلومات عنك، أنت شفيت تمامًا، لذلك سـوف تمكث في عنبر الأصحاء فلا علاج ولا صدمات كهربائية ريثما نُتِمُّ تحرياتنا.

انسـحب خارجًـا وتبـع الممرضة إلـى العنبر الـذي كان بـه فأخذت أشياءه وذهبت به إلى عنبر آخر، استلقى على سريره الجديد وأخذ الصداع يحاصـره ويضغـط على رأسـه وعنقه. ما الـذي أتى به إلى هنـا حقًّا؟ وهل حقيقةً مكث هنا خمس سـنوات كما قال مدير المستشـفى، خمس سنوات فقـد خلالها اسـمه أو أية معلومات عنـه، كيف كان يعيـش قبلها، ومن أين أتـى، أين هم أهله إذا كان له أهل؟ ولماذا لم يبحثوا عنه طوال تلك الفترة؟ هل هم الذين جاءوا به، أم أنه جاء بقدميه؟ أسئلة كثيرة ظلت تطن في رأسه دون إجابـة شـافية. إنه يفيق فجأة علـى حقيقة مرعبة: لقد مسـحت ذاكرته بأسـتيكة وطمسـت هويته تمامًا، فمن هو إذن؟ وكيف كان يعيش، هل كان مريضًـا طـوال تلك الفتـرة؟ مجنونًا يعني، وفي مستشـفى عسـكري، وهو مـا يعني أنه كان مجندًا؟! شـعر باليأس فجأة، وكان الصداع يداهمه بشـدة فوضع رأسه بين مخدتين وأغمض عينيه.

كان يصعد جبلًا عاليًا، وكان يوشك على بلوغ قمته، وفوق قمة الجبل كانـت هنـاك امرأة عاريـة تمد له يدها فتعلـق بها، لكنها تركته فجأة فسـقط يتدحرج حتى السفح ومات. لكنه صحا فجأة فوجد نفسه بين ذراعي امرأة أخرى وكاد يبلغ الذروة. بينما أحدهم يهتف به: أين أنت يا جمال؟ وصف

طويل من النساء العاريات يقف أمامه، كانت بينهن واحدة ظلت تحدق به وتبكي بينما يمارس فحولته عليهن جميعًا، ثم أمسكن به وأخرجن سكاكين من بين أفخاذهن وأخذن يطعنّه ويمزقن جسده قطعًا صغيرة أخذن يأكلنها حتى التهمنه كله، ثم تقيأن جسده فأخذ يتجمع أمام أعينهن حتى استوى بشرًا مرة أخرى وهن يضحكن ويفتحن له أبوابهن يدعونه لسكب روحه فيهن.

في الصباح استيقظ مبكرًا، وشعر ببلل بين فخذيه، كان الصراع قد تلاشى، وجلس على حافة السرير وحاول تذكر حياته السابقة لدخوله المستشفى فلم يفلح، قال لنفسه: إنهم الآن يتحرون عني، ولابد أنهم سيعرفون من أنا ومن أين جئت، فالحكومة تعرف كل شيء ويا خبر النهاردة بفلوس بكرة يبقى ببلاش. قام وتمشى قليلًا في حديقة المستشفى، يعلم أن المرضى غير الخطرين أو الذين شفوا لا تعين عليهم حراسة، أما الخطرون فلابد من وجود حراسة مشددة ولا يسمح لهم بالخروج من العنبر، وها هو يتجول بحريته دون رقابة من أحد، كان سور المستشفى عاليًا وعلى قمته وضعت أسلاك شائكة وأبراج مراقبة يقف عليها جنود مدججون بالسلاح، وأخذ يتأمل السور العالي، وتذكر فجأة أنه تسلق هذا السور من قبل وأن ملابسه اشتبكت في الأسلاك الشائكة وأنه جرح وأنهم أمسكوه وأعادوه مرة ثانية، ولكن متى حدث ذلك؟ لا يذكر، هل حاول الهرب من قبل؟ سؤال ظل يتردد في صدره طوال اليوم د ون إجابة.

***

قال لها: وحشني صوتك. ردت عليه: وانت كمان صوتك جميل، له نبر حلو في الأذن أحب أن أسمعه. وقال لها:

دَعِيني أَقُولُ بِكلِّ اللُّغاتِ الَّتي تَعرِفين

وَلا تَعرِفين

أُحبُّك أَنت

وَأَشْتَاقكِ أَنتِ

وقالت له: كلامك جميل ولا أعرف قول مثله، فقال لها: لو آمنت فسوف تعرفين كيف تحبين. قالت: ولكني لا أومن وأشعر بالاكتفاء الذاتي، لقد أحببت زوجي طوال ثلاث عشرة سنة، والآن نحن أصدقاء رغم اتفاقنا على الانفصال. ضحك قائلًا: لابد أنه معذب الآن. لا، إنه يعيش بعيدًا عني منذ فترة، ويحدثني من وقت لآخر، ولا يشعر بالفقد ولا أنا أيضًا، ونحن متفاهمان إلى أقصى درجة. ألا تشعرين بالشفقة عليه من جراء هذا الانفصال الذي أشعر أن لك يدًا فيه. ضحكت وقالت: لقد تزوجنا على حب، وكنا صغيرين، وكنت لا أطيق الانفصال عنه، لكنه سافر إلى كندا مدرسًا في جامعاتها وبقيت أنا في إنجلترا لأكمل دراستي ثم أعين في إحدى جامعاتها، وتصورت أنني لن أعيش بدونه ساعة واحدة، ولكن الحقيقة هي أنني عشت ثماني سنوات بدونه، كذلك هو، ونلتقي ترانزيت في العطلات، وقد شعرنا فجأة أنا وهو أن ظروف كل منا تختلف وتتعارض مع ظروف الآخر فقررنا الانفصال وتفاهمنا أن نكون أصدقاء. وقالت له: هل فكرت أنت في ماهية هذه العلاقة بيننا خاصة أن طريقنا أيضًا يتعارض

مـع بعضـه. لا، لم أفكر في شـيء حتى هـذه اللحظة إلا في أننـي أحببتك، وأننـي أعيش حالة لم أعشـها من قبل، فكل النسـاء اللاتي عرفتهن من قبل كن يجرين ورائي ويطاردنني، أما أنت فحالة خاصة، حالة اخترتها أنا، وأنا الذي أطاردك وسـوف أطاردك حتى لو لم تسـتجيبي لحبي. ولماذا تسـمي هـذا حبًّـا؟! ربمـا كانت هلوسـات أطلقها خيالـك. قالـت وصمتت. هذه هي مشـكلة علاقتنا : أنـا أعيش في الخيال وأسـتطيع الانفصال عن الواقع وقتمـا أريد، وأنت تعيشـين في الواقع ولا تسـتطيعين الانفصـال عنه حتى إذا أردت، تؤمنيـن بكل ما هو مادي بينمـا أومن بالروح وما وراءها، ولكن أليـس الخيـال في بعض الأحيان أجمل من الواقع، بل أهم؟ هذا ما أسـميه الهروب، عدم مواجهة الواقع حتى ولو كان سـيئًا. ولماذا تسـمينه هروبًا؟! أنا شخصيًّا أرى الواقع أفضل وأعمق بعين الخيال وليس العكس، إن أعظم مـا حققته البشـرية عبر تاريخهـا كان عبارة عن خيال، الحلـم بالصعود إلى القمـر، هزيمة الجاذبية الأرضية، الانتقال من مكان إلى مكان عبر الطيران، التليفزيـون الذي يجعل العالم بين يديك بمجـرد ضغطة على زر، الراديو، التليفـون، كل هـذا كان خيالًا أولًا، إذا آمنت فسـوف تحبيـن خيالك؛ ففي البدء كان الخيال.

***

كـم مـن الوقت مضـى؟ لا يـدري لكنه اسـتيقظ في أحـد الأيام على أشياء غير عادية تحدث، فقد أخذته الممرضة ومرت به على مكاتب كثيرة، وعـرف أنهم ينهون إجراءات خروجه، وسـلمته كيسًـا وضعت به أشـياءه:

دبلة ذهب، أخذت تتأملها وقالت له إن هناك نقشًا عليها، اسم واحدة تدعى أمينة، ألا يعني هذا الاسم لك شيئًا؟ هز رأسه وكتفيه، ساعة يد، سلسلة مفاتيح، ولاعة. على باب المستشفى كان هناك جنديان من أفراد الشرطة العسكرية ينتظرانه في مكتب الأمن، تسلما أوراقه ووضعا الحديد في يديه ومضيا به عبر البوابة الحديدية الضخمة. كانت أشعة شمس يولية قوية فأغلق عينيه قليلًا، وسحباه فاستسلم لهما وسار بينهما، وأحس أنه يريد الرجوع مرة أخرى إلى المستشفى يحتمي بها من هذا الشارع الواسع اللعين، صدمته حركة الناس والعربات التي تطلق أصواتًا كانت تخترق عقله وأذنيه. أشارا لإحدى العربات وقذفاه داخلها فانطلقت، وأحس بدوار وصداع عنيفين يصيبانه، إلى أين يذهبون به؟ وهل عرفوا من هو؟ لابد أنهم عرفوا، وإلا ما جاءوا ليأخذوه. قرب الظهر تقريبًا وصلت العربة إلى مفترق طرق، وكانت قد تخطت العمار، وعلى مرمى البصر كان يلمح معسكرات الجيش، وتخطت العربة محطة سكة حديد ثم انطلقت عبر طريق مرصوف على جانبيه أسلاك شائكة، ثم انعطفت يسارًا وسارت بضع دقائق حتى توقفت أخيرًا أمام بوابة أحد المعسكرات، أبرزا أوراقهما لأفراد الأمن الذين سمحوا لهما بالمرور فانطلقا قاصدين مكتب شئون الأفراد، أديا التحية العسكرية لمدير المكتب الذي حياهما بدوره، سلماه الأوراق فوقع عليها وأعطاها لهما، وفهم هو أن مهمتهما قد انتهت، فقد فكا الكلابشات من يديه وأخذا أوراقهما ومضيا. وقف داخل المكتب بالقرب من الباب وأخذ يتأمل ظهريهما وهما يبتعدان حتى تلاشيا من أمام عينيه،

وأخيرًا انتبه للجالس خلف المكتب، كان جنديًّا برتبة صول، شعره الأبيض وملامحه تدل على أنه تخطى الأربعين، وأمامه قرأ يافطة كتب عليها: مسعد عبد العزيز - مساعد تعليم الكتيبة. نظر إليه بلطف وابتسم، وأشار له بالجلوس على أحد الجراكن المنثورة في الحجرة والتي يستعملونها بديلًا عن الكراسي جلس صامتًا وأخذ يتطلع حوله: اسم الكريم إيه؟ سأله بينما كان منشغلًا بكشف أمامه. ولما لم يجب تطلع إليه وقال: معلش، شدة وتزول. أخذ أوراقه وضعها في الدرج وأغلقه بالمفتاح، ثم قام وأخذ (جاكت) كان موضوعًا على مسمار في الحائط، ارتداه، أنت اليوم سوف تنام هنا في هذه الحجرة ولن أستطيع تحضيرك الآن فلابد من ذهابي فورًا لألحق الجهاز. وفي الغد أدورك مكتب، فهمت. وعلى أية حال يمكنك الهرب فلن يسألك أحد، واهو نرتاح منك. قال وضحك وهو يأخذ حقيبته ويهرول تاركه وحده في المكتب. تلفت حوله فوجد مشمعًا مكومًا في أحد الأركان فرده ووضع على طرفه (جركن) وتمدد وأسند رأسه فراح في النوم.

***

قالت له: ألم تنم بعد؟ أنت تعرفين أني أسهر طوال الليل . ضحك وأردف: أنا ابن ليل. وأنا أيضًا مؤرقة رغم تعودي على النوم مبكرًا. قال: لو لم تتصلي كنت سأطلبك، فصوتك يوحشني. صحيح؟ وصوتك أنت أيضًا؛ لذلك أريد النوم على صوتك، هل أقترح عليك شيئًا، احكِ لي حكاية، تعرف. أحاول ولو أني لم أجرب من قبل. لأ صحيح فأنا كنت

أنـام علـى حكايات أمـي، وبما أنـك عايش فـي الخيال فاحكِ لـي حكاية أنـام عليها. فلنجرب. قال وصمت قليـلًا، وأخذ يتذكر كل الحكايات التي سمعها من قبل حتى عثر على واحدة ففرح وقال: سوف أحكي لك حكاية الثلاث بنات. ضحكت وهمست: كلي آذان صاغية. وبدأ فقال:

يُحكَـى أن ثـلاث فتيات تُوفـي أبوهن وأمهن ولم يتركا لهن شـيئًا إلا منـزلًا قديمًا خاليًا مـن أي أنواع الفرش والأثاث، اللهم إلا سـجادة قديمة متآكلة وغطاء كن يتغطين به حين يَنَمْنَ، ومغزلًا كن يغزلن عليه طوال الليل ليبعن ما غزلنه في النهار، ويشترين ما يحتجنه من طعام وخيوط غزل.

وفـي يوم من الأيام أصـدر ملك المدينة قرارًا بمنع الناس من السـهر وإضـاءة النور، فدار المنادي في المدينة يخبر الناس بأمر الملك، وأن على الناس النوم من المغرب، ومن يضبط وبيته مضاء سـوف يسـجن. وفي هذا المسـاء عـم الظلام المدينـة كلها، ونزل الملك وحاشـيته يتفقـدون بيوت الرعية ويطمئنون على تنفيذ أمر الملك. وجلسـت الفتيات الثلاث يتحدثن فيما سـوف يفعلن، وقلن: ماذا نفعل ونحن لا نعمل إلا في الليل؟ والغزل لابـد أن نضـيء له نـورًا حتى نرى مـا نفعـل، وإذا لم نعمل فلـن نجد ثمن الطعام. فما الحيلة؟

هـا، معايـا؟ أيـوه معاك لسـه مـا نمتـش، كمل. وفـي الليـل انطلقت أحلامهـن في فضاء البيـت المظلم، قالت الأولى وكانـت أكبرهن: لو كان يجيئنـي الملك ويتزوجني لقلت له أعمل لك بسـاط يفرش قصرك في يوم وليلة. وقالت الثانية وهي الوسـطى: لو تزوجني الملك لقلت له أعمل لك فطيرة تكفيك أنـت وأهل المملكة. وقالت الثالثة وهي أصغرهن وأكثرهن

جمـالًا: لـو تزوجني لقلـت له ألد لك ولـدًا وبنتًـا، أما الولد فتكون رأسـه مليئـة بالشـعر، شـعرة مـن فضة، وشـعرة من ذهـب، والبنـت إن ضحكت تطلـع الشـمس، وإن بكت تغيم وتمطر السـماء. وكان الملك يمر في تلك اللحظـة قريبًا من بيتهن، فسـمع مـا دار من حديث بين الأخـوات الثلاث. وحيـن طلع الصبـاح، وأضاء الكريم بنـوره ولاح، كان أول شـيء يفكر به الملك هو ذلك الحديث العجيب الذي سـمعه في الليل، فأرسـل يستدعي البنـت الكبـرى التي لم تصدق أن الملك يريدها زوجة له، لكن ما رأته كان الحقيقـة بعينها. فقد تزوجها أول ما وقعت عينه عليها، وكله شـوق لمعرفة كيـف تنفـذ وعدهـا، وكان أول حديثه معها هـو قوله: ها أنـت قد تحققت أمنيتـك وتزوجت الملـك، أريني الآن كيف تصنعين بسـاطًا يفرش القصر كلـه! حينئـذ، نظرت الفتاة إليـه وقالت ضاحكة: وهـل صدقت حديثي في الظـلام يا مولاي! فـكلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسـيح. فما كان من الملك إلا أن طلقها.

وفي اليوم التالي أرسـل يستدعي الأخت الوسطى وفعل معها ما فعل مـع الكبـرى، وجاء موعد تنفيذ مـا وعدت به. فنظرت إليـه وقالت ما قالته أختها من قبل: كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح. فنظر إليها نظرة غضب وقال: انضمي إلى أختك فكلاكما كاذبتان، ولابد أن مصيركما واحد.

أمازلت معي على الخط؟ نعم أسمعك أكمل.

فـي اليوم الثالث اسـتدعى الأخت الصغرى، وحيـن نظر إليها وقعت محبتها في قلبه لفرط حسنها وجمالها، وتزوجها في الحال، وقبل أن يدخل

عليها ويكشف عنها غطاءها قال: دعيني أذكرك بوعدك وهو إن تزوجتك تنجبين ولدًا وبنتًا. فردت عليه وقد احمر وجهها خجلًا فزادها جمالًا: إذا شاء ربي يا مولاي وأراد، فأمهلني تسعة شهور وربي يعطيني ويعطيك. فرح الملك بحديثها ودخل بها فعلقت منه في ليلتها وكمل حملها في تسعة شهور، وجاء موعد الولادة فولدت ولدًا تبارك الخلاق فيما خلق، له شعرة من فضة وشعرة من ذهب، ولم يكن قد رآه أحد سوى الداية التي أخذته ووضعت مكانه كلبًا صغيرًا حديث الولادة، أما الولد، فقد أعطته للأختين اللتين غارتا من أختهما الصغرى فأخذتا الولد ووضعتاه في صندوق ورمتاه في البحر.

وبالقرب من البحر، وعلى ربوة عالية تطل عليه، كان يعيش رجل عابد بنى لنفسه عشة من الخوص ظل يتعبد فيها بعيدًا عن الناس، وكعادته كل يوم، نزل إلى البحر ليتوضأ فشاهد صندوقًا صغيرًا عائمًا على وجه الماء، فأشار بيده إلى الصندوق فتوقف بين يديه، فأخذ الصندوق وصعد به إلى العشة وفتحه، وما إن رأى الطفل في الصندوق حتى قال مخاطبًا نفسه: سبحان الله، تبارك الله فيما خلق، ما الذي رمى بك أيها المسكين في هذا اليم الهائج. ونظر إلى الطفل فرآه يبتسم، فأوقع الله محبته في قلبه وضمه إلى صدره وقبَّله، وكان الطفل قد شعر بالجوع فبدأ يبكي ، بحث العابد عن شيء يطعمه إياه فلم يجد فألهمه الله أن يضع إصبعه في فمه فأخذ الطفل يمص الإصبع الذي - ويا للغرابة - امتلأ بالحليب يسقيه حتى نام.

هل نمت سيدتي شهريار؟

لأ أرجوك يا سيد شهرازد، لقد بدأت الحكاية تشدني أكمل.

أما ما كان من أمر الملك، فإنه لما دخل على زوجته اطمأن عليها وسألها عن وليدها، فقالت: ها هو انظر ماذا أعطانا الله. فلما نظر رأى كلبًا أسود حديث الولادة، فأخذ يتعجب من ذلك الأمر، لكنه توجه بالدعاء إلى الله قائلًا: كل عطاياك كريمة، اللهم لا اعتراض على مشيئتك، ثم إنه أمر المربيات أن يأخذن الكلب ويقمن على تربيته كما تربى أولاد الملوك.

ثم إنها حملت منه مرة أخرى وتمت أشهرها فولدت بنتًا تقول للقمر قم وأنا أقعد مكانك، بوجه سبحان من صور كالبدر ليلة تمامه، وشعر مثل سبائك الذهب، وكما حدث مع أخيها، حدث معها، فقد وُضِعت في صندوق ورموه في البحر وحطوا بدلًا منها كلبة. وجاء الملك فرأى خلفته فأخذ يتعجب من عطية ربه وقد أشفق على زوجته، فما الذنب الذي جنته حتى يغضب منها، فهي طلبت من ربها ولدًا وبنتًا، وقد أعطاها بدلًا منهما كلبًا وكلبة، فليس الأمر إذن بيدها وما قدره الله سوف يكون.

أنا تعبت والحكاية طالت وباخت وأنت لن تنامي.

كدة أنا أزعل منك، انت وعدت أن تحكي لي حكاية حتى أنام إذن بر بوعدك وأكمل، ثم إنها ظريفة وليس كما تقول.

طيب، فنرجع إلى أبينا العابد في الجبل، فإنه شاهد الصندوق الثاني عائمًا على وش الماء فأخذه وفتحه فرأى البنت فقال: تبارك الله فيما خلق، وقد هاله حسنها وجمالها وما على وجهها من سمات أولاد الملوك، ولاحظ الشبه الظاهر بينها وبين الصبي، فعرف أنهما أخوان، ثم إن البنت بكت لما أحست الجوع فغامت الشمس وأخذت السماء تمطر،

فمد لها إصبعه فأخذت تمصه حتى شبعت فتبسمت فطلعت الشمس مرة ثانية وتوقف المطر، وروحي يا أيام، تعالي يا أيام، كبر الولد والبنت - وأولاد الحواديت يكبرون سريعًا - والعابد يعاملهما كما لو أنهما ابناه وقام بتعليمهما كل ما يعرفه، وسمى الولد الشاطر حسن والبنت ست الحسن والجمال، وكبرا وهما يظنان أن العابد هو أبوهما، وفي يوم من ذات الأيام جمعهما فجلسا بين يديه وحكى لهما كيف وجدهما، وكيف قام على تربيتهما، وختم حديثه قائلًا: اسمعا ما أقوله جيدًا، لقد جاءني هاتف في المنام يخبرني بانتهاء أجلي، وأنني سوف أموت اليوم فنفذا ما سوف أقوله لكما. وأشار إلى جريدة خضراء في يده، هذه الجريدة إذا ضربتماها في الأرض تجدا بغلة، اركبا عليها ثم اضربا البغلة بالجريدة تجدا نفسيكما أمام قصر الملك، وهناك تسألان عن الحاج على الجناني، هو أخي في الله وبيننا عهد. وهو جناني قصر الملك وسوف أكتب لكما كتابًا تعطيانه له: وتقولان له أبونا العابد أرسل إليك هذا الكتاب. وسوف يدلكما على ما تفعلانه، ثم إنه كتب لهما خطابًا للحاج علي سلمه إليهما مع الجريدة وودعهما وتركاه، وبينما هما سائران إذ قال الولد لأخته لا يجب ترك أبينا العابد هكذا، فهو في مقام والدنا، وإذا كان سوف يموت فلابد من تكفينه ودفنه وهو أقل ما يجب أن نقدمه له، ثم إنهما اختبآ خارج العشة فرأيا العابد وقد تمدد على فراشه بعد أن قرأ الشهادتين، ولم يعد يتحرك فظنا أنه نائم، ولكنهما فوجئا بالمكان وقد امتلأ برجال يرتدون أبيض في أبيض ووجوههم تشع نورًا وقد التفوا حوله يرتلون القرآن. وسمعا أحدهم

يقـول: يرحمك الله يا أخي في الله، ثم إنهم شـرعوا فـي تجهيزه ودفنه في أرض العشـة، ومـا إن انتهـو حتى اختفـوا، فتعجب الأخـوان وتذكرا كلام العابـد فضربـا الأرض بالجريـدة فخرجت بغلة سـوداء بلجـام من الذهب فركبا فوقها وضرب الولد البغلة بالجريدة فإذا بهما أمام قصر الملك، فنزلا عن البغلة وسارا خطوات والتفتا وراءهما فإذا بالبغلة تختفي هي والجريدة وشـاهدا فـي حديقة القصر رجـلًا يقوم بتنظيفها فتقدم منه الشـاطر حسـن وسـأله عن الحاج علي، فقال : أنا هو، فأخرج الشاطر حسن خطاب العابد من جيبه وأعطاه له، فلما قرأه ترحم عليه ورحب بهما وقال: أنتما من الآن أبنائي، وكانت للحاج علي زوجة سـيئة الطباع ما إن وقع نظرها على البنت حتى اشتعل قلبها غيرة وحسدًا وأضمرت لها الشر.

وفـي أحد الأيام نامت على السـرير وأخذت تصـرخ وتتوجع وتقول آه يا وسـطي، آه يا رأسـي، آه يا جنبي، آه يا جسـمي، سـوف أموت يا حاج علي. والولد والبنت دخلا عليها وقالا: سلامتك يا خالة. قالت المرأة: لن أشـفى من مرضي إلا إذا ذهبتما وأحضرتما كبد الحصان الأحمر الذي في الجبل. وكان الحاج علي يعرف أن لا أحد يقدر على الحصان الأحمر وأن من يذهب إليه يموت فقال لها: ما الذي فعلاه حتى ترسليهما إلى حتفهما؟ قالت: لابد من ذلك.

عند ذلك تقدم الشـاطر حسـن وقال: أنا فداؤك يا خالة، سوف أذهب وأحضـر إليـك كبـد الحصان الأحمـر. ثم إنه خلـع خاتمًا كان فـي إصبعه وأعطـاه لأختـه وقال لها البسـيه في إصبعك، ولو ضاق عليـه فاعلمي أنني

فـي شـدة وضيق، ثم إنه امتطى حصانه بعد أن تـودع من أخته والحاج علي ومضى في طريقه إلى الجبل.

لما أشـرف على أول الجبل شاهد راعي أغنام جالسًا بين أغنامه، كان كبيرًا في السـن له لحية بيضاء تغطي صدره، رمى عليه السـلام فرد الراعي بأحسن منه، ثم سأله الراعي عن وجهته، فقال إنه ذاهب إلى حيث الحصان الأحمـر. نظـر إليه الراعي نظرة إشـفاق وقال له: ارجع يـا ولدي من حيث أتيت فأنت مازلت صغيرًا على صعود الجبل، وما أظن خالتك هذه إلا أنها أرادت هـلاكك. قال الفتـى: هذا لابد منه وقد وعدتها يـا أبي بإحضار كبد الحصـان الأحمر. فلما رأى الراعي إصراره قال له: إذن خذ يا ولدي معك هـذا الخـروف حتى إذا قابلك الغول فأهده الخـروف حتى لا يأكلك أنت، ثـم إنك تبدأ بالسـلام أولًا قبل أن يبدأك هو، فإنه لو بدأ هو بالسـلام فاعلم أنك ميت لا محالة.

شـكره الغلام وأخذ الخروف وركب حصانه وظل صاعدًا في الجبل حتـى لمـح الغول من بعيد جالسًـا، وحيـن اقترب منه قال: السـلام عليكم يا أبانا الغول. نظر إليه الغول في غيظ وقال له: لولا سـلامك سـبق كلامك لأكلت لحمك قبل عضامك. ما الذي تريده يا ولدي؟ قال الشـاطر حسن: أولًا: خـذ الخـروف هديـة مني إليـك. ثانيًا: أريـدك أن تدلنـي على مكان الحصان الأحمر.

أنـت تطلـب المسـتحيل يا ولـدي، فأحد لـم يطلبه ونجـا منه. أحس الغلام باليأس ونكس رأسـه حزنًا، فلما شـاهد الغول ذلـك قال له : اذهب إلـى أخـي، فهو أكبر مني، ويعـرف أكثر مني، وخذ معـك الخروف وأعطه

إياه يمكن يدلك. شكره الغلام وأكمل صعوده في الجبل حتى لمحه فسلم عليه فقال: لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عضامك. ثم سأله عن سبب قدومه فأخبره، فقال له: يا ولدي أنت صغير وخسارة في الموت فأنت تطلب ما عجزت الملوك والأمراء عنه. فلما لمح إصراره قال له: إذا مشيت قليلًا فسوف تجد أختي الغولة، فهي أكبر مني وتعرف عني، تجدها جالسة تطحن على الرحاية وتغني، إذا وجدتها تغني اربط حصانك بعيدًا عنها وادخل عليها واشرب من صدرها، وبعد أن تشرب قل لها: شربت من صدرك اليمين صرت كما ولدك أمين، شربت من صدرك الشمال صرت كما ولدك كمال. تقول لك ماذا تريد. فقل لها على طلبك ولا تخش شيئًا.

ودعه الفتى وانصرف، وظل صاعدًا في الجبل حتى رآها فترجل عن حصانه وربطه بعيدًا واقترب منها فوجدها تطحن على الرحاية وتغني فهجم عليها وشرب من صدرها فقالت له: شربت من صدري اليمين صرت كما ولدي أمين، شربت من صدري الشمال صرت كما ولدي كمال، ثم إنه حكى حكايته - وليس في الإعادة إفادة - فلما سمعت حكايته قالت له: سوف أساعدك ولكن اسمع كلامي وإلا سوف تموت، امش حتى نهاية الجبل، يطلع لك ديك كبير تجده يغني بصوت جميل يسحر العقول، إذا أنت جاوبته في غنائه سحرك وسجنك عنده في القفص، وإذا لم تجاوبه وتركته ينتهي من غنائه اهجم عليه وأمسكه وخذ منه مفتاح القفص فافتحه يخرج منه ناس مسحورة ينفك سحرها على يديك، وهؤلاء هم الذين يقبضون على الحصان الأحمر، ولكن مقاومة سحر صوته محال يا ولدي

فاحـذر. أخذ الفتى يفكر فيما قالته الغولـة وكان قد اقترب من نهاية الجبل حين تبين الديك، رآه واقفًا نافشًـا ريشـه الملون بألوان ذهبية تعكس ألوان الطيـف في شـمس الظهيرة، وكان على رأسـه عرف متغطـرس، فلما تقدم منـه ولمحـه الديك شـرع في الغنـاء، وحقًّا كـم كان سـاحرًا ذلك الصوت الـذي انطلق من الديك وهو يتمايل طربًا حتى إن الفتى شـعر بالجبال تهتز طربًا، وقد أصابت الفتى نشـوة حتى إنه نسـي كل التحذيـرات التي أوصته بهـا الغولة وأخذ يغني هو أيضًا مع الديـك، وكان هذا ما يريده الديك، فقد توقـف فجأة عن الغناء، وأشـار إليه فسـحره في الحال إلـى عصفور صغير وضعه في القفص.

ها وبعدين! يبدو أنني تورطت معك في حكاية لن تنتهي. لأ أرجوك، لقد أوشكت على النوم مع انتهاء الحكاية يلّا أكمل.

طيـب وبعديـن يـا سـتي.. وصلنا لحـد فين، آه، هـذا مـا كان من أمر الشـاطر حسـن. أما ما كان من أمر أخته فقد جلست تبكي على فراق أخيها وهـي تنتظر عودته، وتمنت أن تكـون قد ذهبت بدلًا منه، وبينما هي كذلك نظرت إلى الخاتم في إصبعها فأحسـت أنه يضيق حتى إنها تألمت فعرفت أنـه وقع فـي ضيق؛ لأن هذه هي العلامة المتفق عليهـا بينهما، فلما تأكدت مـن ذلـك قامـت وتودعت مـن الحـاج علي وزوجتـه وركبـت على فرس وانطلقـت إلـى الجبـل، وسـارت في نفـس الطريق التي سـار فيهـا أخوها ومـرت بنفـس الغيـلان الثلاثـة الأخـوة ودار بينهـا وبينهم نفـس الحديث – وليـس في الإعادة إفادة– وما إن اقتربت من الديك وتبينت موضعه حتى أخرجـت من جيبها قطعة قطن وضعتها في أذنيها، وشـرع الديك في الغناء

حيـن رآها، فرأت الصخور تتحرك، والجبال تتمايل، والفرس يصهل عاليًا وهـو يضـرب الأرض بقوامه بينما هي واقفة في ثبـات وصامتة أمام الديك الذي واصل غناءه حتى شعر بالتعب فوقف ساكنًا بين يديها وقلبه ينفطر من الغيـظ، وأخذ ينكمش ويتضاءل حتـى أصبح صغيرًا جدًّا فعلمت أن خطره قد زال فأخذته بين يديها وسـألته عن أخيها، فأشـار إلى القفص، ولمحت المفتاح معلقًا في رقبته فأخذته وتقدمت من القفص. فتحته وأخذت تخرج كل الكائنـات الموجودة به، وكم كانت دهشـتها وهي تـرى الكائنات التي تخرجهـا تتحـول أمامها إلى بشـر حتى امتـلأ الجبل بملوك وأمـراء وتجار وصعاليـك، وتقـدم كل منهم إليها وأخذ يقبل يدها علـى تخليصها إياه من أسـر السحر. فجمعتهم كلهم وقالت: ما جزاء المعروف؟ فردوا جميعًا في نَفَسٍ واحـد: رده بأحسـن منه. قالـت: لا أطلب منكم سـوى القبض على الحصان الأحمر وأخذ كبده لخالتي حتى تطيب.

وكان الحصان الأحمر يظل متخفيًا طوال السـنة ولا يأتي هذه الناحية من الجبل إلا مرة واحدة في وقت معلوم. وبالمقدر كان هذا ميعاد ظهوره، فلمـا جاء ورأى هـذا الجمع الغفير من الناس أراد الرجوع فحلقوا عليه من كل الجهات وأسـروه وذبحوه وأخرجوا كبده. أعطوه للفتاة التي فرحت به وأخذتـه وأخذت الديك معها في قفص وسـارت عائـدة هي وأخوها حتى أشـرفت على القصر ودخلت علـى خالتها زوجة الحاج علـي وقالت لها: أحضـرت لك كبد الحصـان الأحمر، فلما رأت ذلك انفقعـت مرارتها من الغيرة والحسـد وماتت. أما الحاج علي فقد هنأهما على السـلامة وجلسـا بيـن يديـه يقصان ما حدث لهما. وضعت سـت الحسـن والجمال القفص الموجـود بـه الديك في الجنينـة، فأخذ الناس يسـمعون صوتـه وهو يغني

بصوت يسحر القلوب. وانتشر خبر الديك المغني في كل أنحاء المملكة فجاء الناس من كل المدن لسماع صوته ومشاهدة البنت العجيبة التي ما إن تسمع صوت الديك وهو يغني حتى يحدث الآتي:

إذا كانت أغنية الديك حزينة بكت فتختفي الشمس وتتجمع السحب وتمطر السماء. وإذا كانت الأغنية مرحة ضحكت فتطلع الشمس ويكف المطر عن الهطول وتنقشع الغيوم والسحب.

وفي يوم من ذات الأيام، وبينما الملك يتجول في حديقة القصر سمع غناء الديك فأخذ ينصت لصوته الساحر، واقترب منه فرأى البنت وأخاها يجلسان بجانبه، والذي أدهشه أكثر أنه رأى البنت تبكي فتغيم الشمس وينزل المطر، ورآها تضحك فطلعت الشمس وتوقف المطر، فحدَّث نفسه قائلًا: يا ربي ما هذا الذي أراه وأسمعه، كأني بدعوة زوجتي تتحقق. إن هذه البنت هي ما تمنته زوجتي ووعدتني به، كذلك هذا الولد الجميل، ثم إنه دخل إلى قصره واستدعى الحاج علي الجنايني وقال له: اصدقني القول في حقيقة هذه البنت وهذا الولد. فخاف الحاج علي عليهما وقال: هما ابناي يا مولاي. قال الملك: ما عهدت لك أولادًا فتكلم الصدق وإلا ضربت عنقك. فرد قائلًا في خوف: الحقيقة يا مولاي أن لهما حكاية عجيبة وها أنا أقصها عليك من البداية حتى النهاية. وما إن انتهى حتى قام الملك باستدعاء الولد والبنت فوقفا أمامه فحن قلبه إليهما وقام فأخذهما من يديهما وأدخلهما على زوجته الملكة التي ما إن رأتهما حتى عرفت أنهما ابناها اللذين تمنتهما، واجتمع الشمل مرة أخرى ولأن الولد والبنت

فائقا الحسـن والجمال – مثلك – فقد خطبـا لبنات وأبناء الملوك، وأقاموا الأفـراح وعاشـوا في التبـات والنبات وأنجبـا صبيان وبنات إلـى أن أتاهم هـادم اللذات ومفـرق الجماعات سـبحان الحي الـذي لا يموت صاحب الملك والملكوت – هل نمت ؟...

***

في السـاعة السادسـة صباحًا اسـتيقظ علـى صوت جلبة، فتـح عينيه نصف فتحة فشـاهد أفـراد مكتب شـئون الأفراد يملأون المـكان، فوجئوا به ولم يشـأ أحدهم إيقاظه. قام فطوى المشـمع ووضعه في ركن الحجرة، وجلس على الجركن، أخذوا ينظرون إليه نظرة أحس أنها غير عدائية، كانوا شـبانًا صغارًا، وكان هو بشـعره الذي دب فيه البياض كالأب بالنسـبة لهم. جـاءوا بإفطـار مكون من فول مدمس وأرغفة وشـاي سـاخن وعزموا عليه بالإفطار معهم فوافق، كان يأكل صامتًا بينما أداروا أحاديث شـتى، وسـأله أحدهم عن اسمه فنظر إليه ولم يجب. وقال آخر: هل كنت هاربًا؟ فانهمك أكثـر في التهام طعامه صامتًـا. انتهوا من الإفطار وخرجـوا لحضور طابور الصبـاح بينما جلس بالقرب من مدخل الحجـرة وأخذ يتأمل تلال الكثبان الرمليـة الممتدة أمامـه والمختلطة بثكنات وعنابر النـوم الخاصة بالجنود، ترى، ما الذي سوف يفعلونه معه؟ ما هي عقوبة هروبه من التجنيد؟ ولماذا هرب أصلًا؟ ألا يوجد له أهل يسألونه عنه؟! هل اعتبروه مات وقضي الأمر واستراحوا، لماذا تلح عليه رائحة تلك المرأة؟ يكاد يشم جسدها ويلمسه، حتى اسـمها يعرفه، كل تفاصيـل علاقتهما، أحاديث بكاملها دارت بينهما،

من هي؟ وأين هي الآن؟ ولماذا هي بالذات؟!

***

هـا، ألـم تنم؟ أقول لك علـى معلومة، أنا لم أنم منـذ ثلاثين عامًا، أنا ملـك الليـل، أسـهر الليل بطولـه ولا أنـام إلا صباحًا، فطرتـي التي فطرت عليهـا، أعرف أن هذا ضد الطبيعـة، لكني مختلف كما أنت مختلفة. ولكن ألا تذهب إلى عملك صباحًا كبقية البشر؟ أنت تعرفين أن عملي لا يتطلب حضـوري يوميًّا، وأسـتطيع أن أؤديه في البيت، فـي بعض الأحيان أواصل الليل بالنهار، هذه حياتي وتعودت عليها. على فكرة، أنا فكرت في مساحة الاتفاق والاختلاف بيننا، لقد ولدنا في يوم واحد أنا وأنت، وربما في ساعة واحـدة، كلانا يعشـق أم كلثوم وبولاق الدكرور بحواريهـا الضيقة، بأزقتها وشـوارعها المتربـة، بناسـها أولاد البلـد الحقيقييـن الغلابـة. أما مسـاحة الاختـلاف فكبيـرة جـدًّا، وربما الاختلاف هـو ما يجذبني إليـك إنه قانون الجاذبيـة يا حبيبتي، فأرسـتقراطيتك في مقابل شـعبيتي، جاذبيتك الأنثوية فـي مقابل رجولتي، ذكاؤك وسـرعة بديهتك في مقابـل أحلامي الطفولية، واقعيتك في مقابل خيالي الخصب، كفرك بكل شيء يقابله إيماني الراسخ بـكل شـيء، أليس هذا تكاملًا يصعـب إيجاد مثله بين البشـر، تلك العلاقة الضدية بين الشـك والإيمان، العقل والخيال، النضج والطفولة، أتصور أن الإنسان لا يمكن أن يعيش بدون هذه الأشياء في داخله، ما رأيك؟

يمكن، لكن المسألة تحتاج إلى بعض التفكير، فأنا لا أشعر بالتناقض أو النقـص الداخلي، إنما أحس باكتفاء ذاتي يملأني فلا أفكر فيما تفكر فيه

الآن، إنما حدثني عن نفسك قليلًا، أحب سماع صوتك.

إذا أردت ملخصًا وافيًا لشخصي في كلمتين أقول لك: أنا رجل باع نفسه للخيال، فكل حياتي الماضي منها والحاضر وحتى المستقبل أراها بعين الخيال، تمامًا كما أراك وأسمعك الآن بقدرة خيالي، لقد أسميتك امرأة المستحيل، وأسميتك امرأة ليس كمثلها امرأة، ووضعت فيك من خيالي أجمل ما في نساء الأرض، أنت تركيبة خاصة أنا متخيلها وصانعها، هل تعرفين أسطورة بجماليون الذي صنع تمثالًا نموذجيًّا لامرأة هي عصارة ما تخيله وصب فيه عبقريته ثم وقع في حب تمثاله، أنا تقريبًا مثله، ولكن بتصرف.

وهل تتصور أن لهذه المرأة وجودًا في الواقع؟

لقد أوجدتها بقوة خيالي فيك أنت دون نساء العالمين.

سأسمي هذا: هذيان جميل.

سميه كما شئت، فلو كنت بمستوى جنوني لفعلت مثلي وحلمت بي حتى قبل أن تولدي، ثم لبحثت عني حتى وجدتني. هل تعرفين لقد تخيلتك في الكتب وتخيلتك تخرجين من أحدها، وتخيلتك تنادين علي أنِ ابحثْ عني في مدن الخيال أولًا، فخضت رحلة عجائبية بدأت من حجرتي، ومررت على مدن خرافية حتى ذهبت إلى مدينة الدبابين وبيت الأحزان، وصعدت جبل الحكايات وقابلت عفريتًا من الجن حارس جبل الحكايات ولم يدعني أمر قبل أن أقول له كلمة السر، هل تعرفين ما هي كلمة السر التي جعلتني أمر من جبل الحكايات، إنها اسمك، وفي رحلتي رأيت ما لم أره، وسمعت ما لم أسمعه، ولا خطر على قلبي قَطُّ. كان زادي

وزوادي في رحلة سفري العجيبة، دخلت سكة الندامة وخرجت من غير سوء، وعرجت على سكة اللي يروح ما يرجعش وخرجت كالشعرة من العجين، حتى وصلت إلى بلاد واق الواق ووقفت على جبال قاف، وندهت عليك بكل اللغات التي تعرفين والتي لا تعرفين: أين أنت يا أنا، وها آنذا وجدتك تتجسدين أمامي دمًا ولحمًا، امرأة حقيقية أسمع صوتها الآن كأجمل ما تكون الأصوات، أتخيله آتيًا من مدني الخيالية، هل أقول إنه أرق من صوت نسمة، أو أجمل من صوت مَلَك.

كلامك جميل ولن أستطيع قول مثله.

طبعًا لن تستطيعي قول مثله؛ لأنه ليس مجرد كلام، هو القلب حين يفيض، وحين تضيق العبارة عما أعاني، وحين تعجز اللغة عن مواصلة الحديث، وحين يصير الكلام مؤامرة أتورط فيها، فدعيني أقولك بالصمت ما بين نفسي وبيني، وما بين أهداب عيني وعيني، حتى إذا ما تغرغرت باسمك، من شفتي تولدين كما أحب أن تكوني، فأنت المن والسلوى، وأنت السلو وكل ما سلاك، والسلوان هو ماء كانوا يزعمون أن العاشق إذا شربه سلا عن حبه، وأنا لا أريد شربك حتى لا أنسى، والسلوانة هي خرزة كانوا يزعمون أنه إذا صب عليها ماء المطر وشربها العاشق سلا معشوقته، والسلوة كل ما يسلي ويقال سقيتني سلوة أي طيبت نفسي، ها أنت ترين اسمك مقرونًا بالعشق فلا فكاك مني.

***

جاء الصول مساعد تعليم الكتيبة ووضع أوراقه في ملف وقال له: جهز نفسك فسوف أدورك مكتب الآن، عرف أن اسمه الصول مسعد،

مشى خلفه إلى حيث مكتب قائد الكتيبة، كان يقع في مواجهة مكتب شئون الأفراد على تبة عالية ومحاطًا بالزرع، وقف على باب المكتب بينما تقدم الصول مسعد ففتح بابًا سلكيًّا ثم آخر خشبيًّا وغاب داخل المكتب دقائق ثم عاد وزعق: انتباه يا جندي، يمينًا در، شمالًا در، للأمام قف، خطوة معتادة سريعًا مارش. قاده إلى داخل المكتب وخبط الأرض بقدمه مؤديًا التحية العسكرية: تمام يا فندم، الجندي الهارب جمال. ابتسم بتهكم بينه وبين نفسه ها أنت تعرف أخيرًا اسمك. كان يجلس خلف مكتبه بشعره الأسود الأكرت وملامحه الزنجية ووجهه الأسمر وقد تجاوز الأربعين بقليل وخمن أنه صعيدي. أخذ ينظر إلى الأوراق الموضوعة أمامه وقال له: انت كنت في مستشفى المجانين مجنون ولا بتستهبل يالَه. لم يرد وانشغل بعد مربعات السجادة الموضوعة على الأرض فأكمل: وناوي تتجنن علينا ولا ها تعقل، عمومًا إحنا هانعقلك. انصرف.

قاده الصول مسعد إلى مكتب شئون الأفراد، قال له: اجلس هنا ريثما أحضرك وأجهز أوراقك فسوف تذهب لسجن اللواء حتى ميعاد جلسة المحكمة.

اصطحبه اثنان من أمن اللواء حيث ذهبا به إلى مكتب ضابط أمن اللواء الذي سأله عدة أسئلة ثم أشار لأفراد الأمن فأخذوه إلى حيث المستقر، حجرة أسمنتية متران في مترين ومعرشة بالصاج يغلقها باب حديدي صغير بمزلاج ويقف على بابها جندي يحمل سلاحه في يده، لم يكن بالحجرة سوى ثلاثة جنود، كانوا صغارًا، وكان شعرهم محلوقًا على الزيرو، وكانوا

يفترشون الأرض المبلطة بالأسمنت وقد وضع كل منهم مشمعًا تحته. ودهمته رائحة عفونة كانت منبعثة من جردل كان موضوعًا بالقرب من الباب ومغطى بسعفة نخيل. جلس منزويًا في أحد أركان الحجرة مبتعدًا بقدر الإمكان عن مكان الرائحة النتنة، كانوا ينظرون إليه بصمت وتمعن وابتدره أحدهم قائلًا: شرفت يا دفعة، اسم الكريم إيه؟ وتذكر أنهم كانوا ينادونه جمال من واقع ملفه. عاشت الأسامي، قال آخر ورمى إليه سيجارة ومشط كبريت فأشعلها وأخذ نفسًا عميقًا ابتلعه ثم بدأ يسربه ببطء ولذة، وشعر بخدر يجتاح جسده فمد رجليه أمامه وأخذ يتابع ببصره عصفورة كانت تقف على الشباك الوحيد ذي القضبان الحديدية الذي كان يرسل ضوءًا خافتًا من الخارج .

***

هل نامت عصفورتي؟

لا لم أنم بعد. وحشني صوتك، وأنت كمان وحشتني جدًّا، هل تعرفين أنني حتى الآن لم أسمع منك كلمة أحبك!

ذلك لأنني لا أعرف حقيقة مشاعري حتى الآن، أنا طبعًا أميل إليك وأحب سماع صوتك ورؤيتك، لكني لا أستطيع الجزم بأن هذا هو الحب، طب أنت قرأت كثيرًا وعرفت قبلي كثيرًا، تقدر تقول لي ما هو الحب؟ كيف تريدين أن أفسر مالا يفسر، ولكن يحس، أما عن نفسي فأنا أحبك على فطرتي الأولى، وكما يأمرني جسدي وذاكرتي وسلالتي أنا ابن بولاق الذي اصطدم بجدار الحداثة فلم يعد يميز بين شكل النهر وشكل الكمأة

السمراء، وبين لذعة العشق ولذعة الفودكا، وبين حرب البسوس وحرب الديسكو، وبين حليب الناقة ورغوة الكابتشينو، وبين هدوء الريف وضجيج المترو وإشارات المرور، أنا الذي تشتعل في دمائي شمس بولاق الدكرور الفقيرة المجهدة، وأختزن في قلبي أجمل قصائد الحب العذري، جميل بثينة، قيس وليلى، عنتر وعبلة، غزليات امرئ القيس وعروة بن الورد، أحبك كما أنت، وأرجو أن تحبيني كما أنا، بتاريخي المضرج بصوت الربابة والباعة الجائلين وأحزاني المرتفعة كجبال المقطم وقميصي المشغول بأصابع الفقراء، لا بأصابع بيير كاردان، ربما لا أكون رفيقًا جيدًا، أو حبيبًا جيدًا، وربما لا تكون ملابسي لائقة في حي نايتس بريدج، وربما لا تحبين حكاياتي، فهل أصبحت مع الزمن لندنية، تقرأين جريدة التايمز وتشربين شاي الساعة الخامسة وتلعبين البريدج وتقفين على باب هارودز، أما أنا فمنذ ولادتي أبحث عنك، فخذيني على بدائيتي، وعلى دروشتي، وعلى سذاجتي، خذيني على مساحة عقلي، فكلما نقص عقل العاشق زادت تجلياته، خذيني على طبيعتي البولاقية، أرعد بلا سبب، وأمطر بلا سبب، أسكر بلا سبب، وأكتب لك رسائل حب بلا سبب، وأمزقها أيضًا بلا سبب، حكيمًا كما أنا، ومجنونًا كما أنا، وصارخًا وساخطًا وغاضبًا وعاصفًا كما أنا، فابن بولاق الدكرور لا يجيد التنكر ولا يعرف استعمال المساحيق والأقنعة.

لا تتنهدي أرجوك، فصوت تنهداتك يشعل حرائقي ويؤجج نارًا لن تنطفئ إلا بارتطام حضارتك بحضارتي .

هل مازلت مغرورة؟

أنا مغرورة بكلامك عني.

أيتها المتحضرة حتى الثمالة، أحبك مبتلة بماء الدهشة وموسيقى الأسئلة، أيتها الشمالية التي تتحمص على شمس مدينتي العشوائية، اخرجي من تحت ثلج لندن وادخلي بلا شروط أو مقدمات فيزيقية في حرائق دمي، فأنا أحبك حتى آخر رجولتي، وآخر أنوثتك.

***

استيقظ مبكرًا على صوت الباب يفتح، أخرجوهم إلى ساحة الطابور الذي استغرق نصف ساعة، ثم أخذوهم مع الحرس «طُلبة» مطبخ وكان عليه تقشير أطنان من البصل، بينما انهمك آخرون في تنقية الأرز أو تقطيع الباذنجان الأسود، كان الجنود يثرثرون عن رفع درجة الاستعداد في اللواء؛ لأن اليوم هو الأول من أكتوبر، وأن العرض العسكري الذي يقام يوم الاحتفال بذكرى النصر قد بدأ العد التنازلي له من اليوم، فاللواء باعتباره مدفعية مركزية فسوف يشارك في العرض العسكري بوحدات رمزية من كتائب اللواء المختلفة، ولأول مرة شعر أنه يريد الحديث مع أحد يثرثر معهم في أحاديثهم، وعند منتصف النهار كانوا على وشك الانتهاء مما في يدهم حين دخل عليهم ضابط برتبة ملازم أول، وأخذ يتفقد ما قاموا بعمله، حتى إذا ما وصل إليه أخذ يتأمله لحظات ثم سأله: انت جديد يا دفعة، أومأ له بالإيجاب فأردف قائلًا: ولكنك كبير على هذه المرمطة، اتبعني. وكاد يهم بالخروج معه إلا أن الحرس أوقفه وحدث الضابط قائلًا: يا فندم دا مسجون وعهدتي. رمق الضابط الحرس وشخط فيه: اتركه لي قلت لك فأنا أريده. أخذ جندي الحرس يتذمر لكن الضابط نهره بحزم وأخذه من يده وخرج به، سار وراءه ولم يفكر فيما يريده الضابط منه حتى انتهيا إلى

مكتب الضابط فدخل ودخل وراءه، أشار له بالجلوس فجلس، كان المكتب ضيقًا وبه سرير ودولاب فقط، لكنه كان نظيفًا، أخذ يخلع الأفرول ويعلقه على شماعة في الدولاب ثم ارتدى بيجامة وطوح نفسه فوق السرير وتمدد وأغمض عينيه فحسبه راح في النوم، لكنه اعتدل فجأة وجلس وقد وضع مخدة وراء ظهره وقال له: حكايتك إيه، شكلك مش وش بهدلة، ثم إنك أكبر مني على ما يبدو. كانت في صوته رنة حنان جعلت الدموع تترقرق في عينيه، لكنه تماسك وحاول أن يبدو هادئًا: أنا يا فندم قصتي لا أعرفها، وقد خرجت بالأمس فقط من مستشفى الأمراض النفسية، وقيل لي إني مكثت بها خمس سنوات أعالج من مرض نفسي وإني شفيت فأخرجوني إلى هنا لأحاكم على تهمة هروب من التجنيد. قال له: ما اسمك؟ جمال يا فندم. وأنا اسمي خالد، ملازم أول خالد، اعتبرني أخًا لك واحكِ لي.

المشكلة أنني لا أذكر شيئًا عن حياتي السابقة، حتى اسمي لم أكن أعرفه. هل تعرضت في المستشفى لعلاج بالصدمات الكهربائية؟ أكيد أثرت على الذاكرة، ثم إن خمس سنوات علاج بالكهربا ليست هينة، لكن اطمئن فقد قرأت في مجلة طبيبك الخاص أن هذا العلاج يزول أثره بمرور الوقت مع محاولتك أنت لعلاج نفسك بنفسك، حاول أن تتذكر أي شيء، سيبدو الموضوع صعبًا في بدايته، لكن بتكرار المحاولة سوف تنجح، صدقني، قل لي، ألا تتذكر أي شيء حتى ولو كان تافها. أطرق برأسه إلى الأرض قليلًا ثم اعتدل بوجهه قائلًا: نعم أتذكر بعض الأشياء، أحاديث بكاملها دارت بيني وبين امرأة لا أذكر اسمها أو ملامحها، ولا أذكر أين دارت، لكني أذكر كل كلمة قالتها وكل كلمة قلتها، أين ومتى حدث ذلك، لا أذكر.

سكت الضابط خالد برهة وسرح مع نفسه ثم قال فجأة: اسمع، أنا هاخدك العسكري المراسلة بتاعي، وبذلك أجنبك الحجز والمرمطة وأبعدك عن أيديهم إلى أن تتم محاكمتك، على فكرة اطمئن، انت طالع براءة، يكفي تقرير المستشفى، فأنت كنت غير مسئول عن تصرفاتك، المسألة مسألة وقت ليس أكثر.

حديث الضابط خالد معه نزل بردًا وسلامًا على قلبه، أحس تجاهه بالراحة، لم يكن بالطويل أو القصير، وكان ممتلئًا قليلًا بوسامة محببة إلى النفس. لكن أبرز ما لمحه هو تواضعه الشديد وتدينه الأشد، كانت الكتب الدينية فوق السرير وتحته وفي الدولاب، وكانت علامة الصلاة محفورة وسط جبينه كقطعة نقود معدنية سوداء. وقبل أن يتركه لينام قليلًا قال له: على أنك لن تستطيع النوم هنا لأنه كما ترى لا يوجد سوى سرير واحد، فاليوم سوف ترجع في الليل إلى زنزانتك ومن الصباح تدبر بعون الله.

في الصباح جاءه الملازم خالد إلى زنزانته فأخرجه ودخل به حجرة ضابط الأمن، قال إنه قريبه وإنه سوف يتسلمه على مسئوليته الخاصة، ثم دفع به للخارج وقال ضاحكًا: انت من الآن عهدتي، عاوزك تطول رقبتي، ثم أكمل: من الآن سوف تنام في ميس الضباط وأنا دبرت لك الأمر، تجلس طوال النهار في حجرتي وفي الليل تنام في الميس بجوار الحجرة، ألم يحدد موعد المحاكمة بعد؟ هز رأسه نفيًا وقال: يبدو أن موضوع المحاكمة في يد الصول مسعد مساعد التعليم، فهو وحده في إمكانه إنهاء الإجراءات والتعجيل بالمحاكمة. قال الملازم خالد: اترك لي هذا الأمر ولا تهتم. سوف يتساءل جمال بينه وبين نفسه: ما الذي يجعل هذا الضابط

يهتم به كل هذا الاهتمام؟ ولن يجد إجابة واضحة عن هذا السؤال سوى أنه تعاطف معه وأراد مساعدته.

في المساء أخذ الضابط خالد يحدثه عن نفسه، كيف نشأ في مدينة ملوي بالصعيد، وكيف قضى طفولته كلها وجزءًا من صباه هناك وأن حلم حياته لم يتحقق وهو أن يصبح طيارًا، إلا أنه التحق بالجيش ودخل مدرسة المدفعية وبعد التخرج التحق بأحد لواءات المدفعية المتمركزة في منطقة الهايكستب، حدثه عن أخيه الذي قبض عليه في حملة سبتمبر لانتمائه إلى إحدى الجماعات الدينية، وأن الرجل لم يترك أحدًا في البلد إلا اعتقله، مصر كلها في السجون الآن. قال خالد إنه زهق من حياته ومن الدنيا لإحساسه أن الظلم قد عم وأن البلد أصبحت مثل القطة تأكل أولادها. وقال له: لا أعرف لماذا أبوح لك بتلك الأفكار؟ ربما لأنك صامت وتنصت جيدًا وأنا أحتاج لأن أتكلم حتى لا أنفجر، وأحتاج أكثر لمن ينصت لي، وربما لأنك فقدت الذاكرة وهذه نعمة تمنيتها أنا أيضًا. قال جمال: تعرف، في بعض الأحيان أتأمل ما أنا فيه وأقول إنني فقدت الذاكرة ربما لأني أردت أن أفقدها بإرادتي وليس بتأثير الصدمات الكهربائية أو معاشرة المرضى، قد تكون محاولة هروب من ماض لا أريد تذكره بالمرة، وقد تكون محاولة للولادة من جديد، ولادة حاضرة ليس فيها شيء من آثار الماضي، ولكن حتى الحاضر لا أستطيع استيعابه والتعامل معه، فلم أعد أفهم شيئًا مما يحدث حولي. لقد أصبحت فيلسوفًا يا صديقي – قال خالد وأضاف، أنا عكسك تمامًا، فأنا أفهم أكثر مما ينبغي وأعرف ما ينبغي عليّ فعله وهذا هو ما يجعلني أشعر بالاكتئاب، ربما كان عليّ أن أعيش؛

مثل بقية خلق الله، آكل وأشرب وأنام وأتفرج على التليفزيون ولا أفكر في شيء على الإطلاق، لكني لا أستطيع وهذا قدري. ضحك جمال وضرب جبهته براحة يده، فنظر إليه خالد متسائلًا فقال جمال: أصلي افتكرت حلمًا دائمًا يتكرر وهو أنني أرى نفسي محمولًا على الأعناق وحولي شبان كثيرون في مثل سني تقريبًا وجميعنا نهتف في غضب، وأن الجنود ينزلون على رءوسنا بالعصي وكعوب البنادق، وأجد نفسي أهرب وأختفي، ربما يحدث هذا في ساحة ميدان عام أو فناء جامعة، هل يمكن أن يكون قد حدث بالفعل، جزء من الماضي الضائع، أم أنه مجرد أضغاث أحلام؟

قال خالد: ربما كنت تتمنى أن تصبح زعيمًا، ثم ضحك قائلًا: دعني أنام الآن فأمامي غدًا يوم شقاء.

***

هاي.

هاي. إزيك.

إزيك انت، وحشتني.

بجد أنا وحشتك؟

آه صدقني، وحشني صوتك، ولم أنم قبل سماع صوتك، وها أنت تراني أكلمك في الثالثة صباحًا.

يعني بدأت تدخلي محرقتي.

شوية، كيف قضيت يومك؟

بالأمس بعد أن تركتك نمت فحلمت بك، كان حلمًا جميلًا.

بجد، طب يلّا احكِ لي بالتفصيل ماذا حلمت.

حلمت أننا.. يعني أنا وانتي مع بعضنا يعني.

أجمل ما فيك أنك مازلت تخجل، تقصد تقول إنك كنت تمارس رجولتك معي.

آه، يعني.

وماذا فعلت معي بالضبط؟

كنتِ رائعة، ولم أشبع منك طوال الليل.

آه.. طبعًا أنا رائعة دومًا.

أيتها المغرورة الصغيرة.

ها وبعدين.

ثم صحوت من الحلم فجلست أكتب رسالة إليك من عشر صفحات تحبي تسمعي بعضها؟

آه.

حبيبتي

لا عاصم لك بعد اليوم مني، من أشواقي، ورسائلي، ونوباتي الجنوبية، سألقي القبض على ملامح وجهك حيث تكونين، وأندس تحت ملابسك حين تنامين، وسأصل إلى شفتيك قبل وصول العصافير إليهما،

وسأضع رسائلي في سلة نهديك قبل وصول ساعي البريد، لن يقف شيء أمام طموحات عشقي شوقي إليك، سأمطر عليك من كل الجهات، من الشرق، من الغرب، من الشمال، من الجنوب، حتى تصيري أنت أنا، وأنا أنت، تتنفسيني، قُضي الأمر وأصبحت رهينتي، سجينة أحلامي وهلوساتي وتوهماتي، لن تفلتي أبدًا من بين أصابعي، ففي كل لحظة، أنا قادر على استحضارك بمجرد ذكر اسمك بين شفتي، وفي كل لحظة أنا قادر على تدويخك بإيقاع أنفاسي، فإن شئت جعلتك عصفورة تتخبط في شرايين دمائي، وإن شئت جعلتك حمامة تحط على أهدابي، وإن شئت جعلت جسدك يتوحد بي، يتقمصني خيالاتي وأحلامي الجامحة، سوف أتحرش بك على مدار ساعات اليوم بخيالي الذي لا يهدأ ولا ينام، حتى يصير ليلك نهارًا، ونهارك ليلًا، وأجعلك تنامين بين دمي وضلوعي، فكما قلت لك من قبل لن تهربي مني إلا إليّ، فأنا رجل مقدر عليك منذ الأزل، فإنه مكتوب: إن كل قلب محفور فيه اسم محبه، وكل جسد نقش فوقه اسم موحده، هل أقول إنني منذ الآن فصاعدًا سوف أسجل همساتك إذ تهمسين، وهمهماتك بين نفسك ونفسك، وهفهفاتك، زفراتك، حمحماتك، صهيل قلبك، دقاته، خفقانه، تمتماتك، هزات جسدك للذة اللمسة الأولى ورعشة شفتيك للقبلة الأولى، وتلاطم أمواجي بأمواجك، سوف أسجل كل ذلك ليس بمقياس ريختر، إنما بمقياس قلبي أنا.

***

ما إن انتهى طابور الصباح حتى تنفس الملازم أول خالد نفسًا عميقًا، وعلى الفور ذهب إلى حجرته فوجد جمال قد أعد له إفطارًا مكونًا من فول

ومربى وقطعة جبن، وكان الماء يغلي على السخان فصب له شايًا ساخنًا، أحس خالد بعدم الرغبة في الإفطار فاكتفى بتناول الشاي، فهو منذ أن قام من نومه وهو يشعر بانقباض مفاجئ لا يعرف مصدره، هل هي حالة الزهق والسخط التي تعتريه هذه الأيام، أم أنها من جراء القبض على أخيه مؤخرًا وتركه أسرته وحيدة وقد عمها الحزن على ابنها الذي لا يعرفون عنه شيئًا، فلم يسمحوا لهم بزيارته أو الاطمئنان عليه، إنهم حتى لا يعرفون لماذا تم القبض عليه، إنهم فقط يعرفون أن السلطات ألقت القبض على كل المتدينين في بلدتهم ملوي، وأنهم تم ترحيلهم إلى القاهرة، لكن أين في القاهرة؟ لا أحد يدري. وقرر خالد أنه سوف يطلب من قائد كتيبته الرائد مكرم عبد العال بضعة أيام من إجازته السنوية وذلك قبل إجازة عيد الأضحى الذي يحل بعد يومين من ميعاد العرض العسكري حتى يتفرغ للبحث عن أخيه ويتفرغ أيضًا لرعاية أبيه وأمه المسنَّين، وكان على وشك الذهاب لمكتب القائد حين أرسل هو لاستدعائه، وفوجئ خالد بالرائد مكرم عبد العال يقول له إنه وقع عليه الاختيار للاشتراك في العرض العسكري، وإنه سوف يقود وحدة من اثني عشر مدفعًا تقودها جراراتها في طابور العرض.

طلب خالد من الرائد مكرم إعفاءه من هذه المهمة، ورجاه أن يوافق على إجازة لعدة أيام يقضيها مع أسرته. لكن الرائد مكرم رفض إعفاءه من مهمته وقال له: سوف أعوضهالك بعد احتفال السادس من أكتوبر ومع إجازة عيد الأضحى. ولم يكن أمام خالد سوى أن يقبل، وهز كتفيه قائلًا:

لتكن مشيئة الله. وفي جزء من الثانية ومضت في ذهنه فجأة فكرة الاغتيال. فها هوذا يرفض الاشتراك في العرض العسكري، ولكن تأبى الأقدار إلا أن يشارك هو، وأن يتاح له هو وحده الفرصة لتنفيذ هذه المهمة المقدسة، تخليص البلد من هذا الحاكم المستبد الذي حول البلد إلى سجن كبير، هكذا شاءت إرادة الله، فليكن ما يكون، إنها الفرصة الأخيرة وعليه ألا يضيعها.

قضى خالد يومه في ثرثرة مع جمال الذي طلب منه أن يحدثه عن الناس والبلد، أسعار الطعام، الملابس، فإن خمس سنوات داخل المستشفى جعلته لا يعرف أي شيء عن أي شيء. قال خالد: أما عن أحوال البلد فلا يوجد أسوأ مما هي فيه الآن، فأنت تعرف أن قوانين الانفتاح على كل شيء جعلت البلد مفتوحة بالفعل ففي سوق الانفتاح أصبحنا نسمع عن المهلباتي والفهلوي والشاطر الذي يلعب بالبيضة والحجر، وسمعنا ورأينا الزلمكة والشبح حتى إن مؤخرة إحدى الراقصات الشهيرات أطلقت على نوع معين من العربات وصل ثمنها إلى ثلاثة أرباع المليون جنيه، رأينا من بدأ حياته شيالًا في الميناء يصبح بعد خمس سنوات ملياردير‌ًا، وآخر يستورد أغذية فاسدة يأكلها الشعب المصري فيصبح مالتي ملياردير، ازداد الأغنياء غنى وازداد الفقراء فقر‌ًا أيضًا، نسي تعاليم الدين الإسلامي حتى إنه نادى بفصل الدين عن الدولة، ارتفع رغيف الخبز لمئات الأضعاف، أصبحنا نستورد كل شيء ونستهلك كل شيء، ومما زاد الطين بلة قيامه بالصلح المنفرد مع أعدائنا وهكذا عاشت مصر في عزلتها الكاملة، صدقني يا جمال هذا الرجل فاسد ولابد من وضع حد لكل هذا الفساد، وربك يمهل ولا يهمل. قال جمال: يا فندم دع الملك للمالك، هل نحن من يصلح الكون؟ نظر

إليه خالد نظرة صامتة، ولابد أنه سرح في أمر ما فقد خرج من حجرته دون أن يتكلم، ورغم برد أكتوبر، إلا أنه أحس بالاحتياج للسير وحده، كانت الكتيبة نائمة الآن والصمت أتم، ولم يكن هناك سوى بعض أفراد الخدمة، كانت كل الأفكار تلتقي لتتجمع في فكرة واحدة، هذه هي فرصتك، سوف يكون الكل هناك، وبقليل من التوفيق سوف تكون الضربة ناجحة، هو على يقين من أنه ميت ميت، سواء في العرض العسكري على أيدي أفراد الحراسة، أو بعد تنفيذ الأمر. لن يحاول الهروب، سيجعلهم إذا لم يقتلوه برصاصاتهم يمسكونه والنتيجة معروفة سلفًا، محاكمة عسكرية، الإعدام رميًا بالرصاص، سيان. هل يخبر أمه وأباه قبل التنفيذ؟ هل سيفهمون ما هو مقدم عليه؟ أم يجعلهم يقرأون اسمه كما سوف يقرأه الجميع في الجرائد ونشرات الأخبار، الأفضل ألا يبوح بسره لأحد. عند هذا الحد كر عائدًا إلى حجرته فوجد جمال قد ذهب إلى حيث يرقد في ميس الضباط فتمدد على السرير وراح في النوم.

***

كانت جالسة في فراندة الفيلا يلفها الظلام والصمت، لمحته يدخل من باب الفيلا فأشارت له، تقدم نحوها وجلس بجانبها، كان الجو خانقًا فارتدت بلوزة على اللحم وسليب فقط، وأمامها على الترابيزة، وضعت زجاجة ويسكي سكوتش ووعاء ثلج وكأسًا، قامت أحضرت كأسًا أخرى وصبت له، وأدارت جهاز مسجل فسرت موسيقى ناعمة، دخل هو أيضًا فخلع ملابسه واكتفى بفانلة وشورت، أشعل سيجارة وارتشف من كأسه ببطء وتلذذ. قالت: تحب ترقص. وضع الكأس جانبًا وبدآ يرقصان. وضعت رأسها على كتفه فأحس أنفاسها الساخنة تلهب وجهه، وفج

جسدها برائحة ياسمين منعشة وطازجة، وأخذت أصابعها تعبث برقبته وظهره وتضغط على مؤخرته. همست: أشعر بالدوار فقد شربت كثيرًا، تركته وارتمت على أحد الكراسي ورفعت ساقيها إلى مسند الكرسي وأشارت له: تعالى هنا جنبي، تعرف، أنا عشت كثيرًا في أوربا، ودائمًا أسأل نفسي سؤالًا لا أجد الإجابة عنه، وهو أن الناس في أوربا يعيشون في جو من الحرية المخيفة، بينما نحن مكبلون بأغلال كثيرة كالدين والأخلاق والعادات والتقاليد والأعراف وأشياء كثيرة لا توجد إلا في عالمنا العربي، وهم يتقدمون، بينما نحن نعود إلى الوراء، فهل العيب فينا وفيما نعتقده؟ قل لي. أخذت تنظر إليه بعينين نصف مغمضتين، وبدت له بلعثمة لسانها سكرانة ولذيذة، وارتشف من كأسه قبل أن يرد عليها: أنا لم أذهب لأوربا مثلك، ولكن يبدو لي أن الناس هناك حلت مشاكلها بنفسها. وقد تبدو لك الحرية التي يتمتعون بها مخيفة على اعتبار أنها حرية مطلقة. بينما هي عكس ذلك حرية مقننة، فهؤلاء الناس صنعوا تقاليدهم بأيديهم، أما نحن فقد ورثنا تركة مثقلة بالتقاليد فظللنا أسرى الماضي، وهذا هو الفارق بيننا وبينهم، ليس للدين دخل في الموضوع، بل على العكس فهم بمفاهيم ديننا يعتبرون أكثر تدينًا، فالمساواة والعدل والحرية والحث على العمل والتقدم هي جوهر جميع الأديان، هم يفعلون ذلك بينما نحن نكتفي بالطقوس. قالت: هل تظن أن الحروب التي خاضها العرب ضد الاستعمار طوال التاريخ وضد إسرائيل لها دخل في هذا التخلف؟ ضحك بصوت عال، وانتابته كريزة من الضحك فشرق، ودمعت عيناه، وانتبهت هي له، صب لنفسه كأسًا أخرى قذفها في فمه دفعة واحدة: أية حروب تقصدين، بل قولي الهزائم المتوالية التي خاضها العرب، أقول

لك على شيء قد تدهشين له: فكثيرًا ما فكرت أن العرب لم ينتبهوا أبدًا أنهم مهزومون على طول الخط، فقد تحولت تلك الهزائم بقدرة قادر إلى انتصارات ورقية، هزمنا في الواقع وانتصرنا على الورق. بدت له العبارة الأخيرة جيدة فأخذ يرددها، وبحركة تمثيلية وقف أمامها وانحنى واضعًا يده فوق صدره: أقدم إليك سيدتي أحد أسلافك المهزومين، أقدم إليك أحمد عرابي، مصطفى كامل، سعد زغلول، جمال عبد الناصر، هل تريدين فرعونيات، خذي عندك: حور محب، أحمس، تحتمس، رمسيس الثاني، خوفو، خفرع، منقرع، ودلوكة أعظم ملكة في التاريخ. وانهار فجأة فوقع على ركبتيه، وبدا سكرانًا يحادث نفسه: هذا هو تاريخي الذي أحمله فوق ظهري أينما ولَّيت، تاريخ أعظم الحضارات، وأعظم الهزائم أيضًا.

***

في الصباح الباكر توجه خالد مع أفراد وحدته في تجربة لطابور العرض العسكري الذي سوف يقام بعد يومين، ومر بطابور المدفعية وجراراتها أمام المنصة الرئيسية في ساحة العرض، إنها خالية الآن، لكنها لن تكون خالية بعد يومين اثنين فقط، في الصف الأول سوف يجلس هو في المنتصف تمامًا، على يمينه ويساره كل أركان النظام، لن يمس أحدًا منهم، هو فقط سوف يركز عليه، وسوف يكون هدفه الأوحد، لن يرى غيره، عليه الآن دراسة كل شيء: ساحة العرض، مكانه الذي سوف يجلس فيه، خط سير العرض العسكري، المسافة بينه وبين المنصة الرئيسية، خطة الهجوم، كيف وأين تبدأ، مراحل تنفيذها. وفكر أنه لكي تنجح الخطة فلابد من وجود اثنين أو ثلاثة معه يساعدونه. كانت هذه النقطة هي المشكلة

الوحيدة، فمن أين يحصل على ثلاثة أفراد يكونون محل ثقة ويقتنعون بما ينوي فعله؟ فأقل خطأ سوف يكلفه حياته دون فائدة، ثم هناك نقطة ثانية وهي أن من يختارهم لابد أن يكونوا جنودًا معه حتى يستطيع إشراكهم في طابور العرض دون أن يعرض نفسه لأية مفاجآت.

في المساء، توجه إلى بولاق الدكرور حيث يقيم صديقه محمد عبد السلام، ولأنه محل ثقته، فقد عرض عليه الخطة كلها، ووافق محمد عبد السلام على خطته دون تعديل، ووعده بإيجاد الأفراد الذين يساعدونه ويشتركون معه في تنفيذ الخطة، كما وعده أيضًا بتجهيز الأسلحة والذخيرة اللازمة.

***

آلو. لسه صاحي

أيوه .. إزيك

إزيك انت، شوف، أنا أتصل الآن لأقول لك إني مسافرة الآن.

مسافرة الآن؟ إلى أين؟

إلى لندن، إني أحزم حقائبي الآن، وسوف يمر السائق في الخامسة وتغادر الطائرة في السابعة. أردت فقط أن أودعك.

تودعينني، هكذا سريعًا.

آه، حبيت أسمع صوتك ربما للمرة الأخيرة، وأشكرك على رقتك وعلى الساعات الجميلة التي قضيتها معك.

آه..

اسـمع، ربما لا يوجد لدي وقت الآن، ولكني سوف أحاول الاتصال بك أو مراسلتك، يلّا، مع السلامة.

***

«كانت الساعة تعلن الثامنة تمامًا حين دق جرس الباب، بعد لحظات، فتحـت له ودعته للدخـول، كانت ترتدي روبًا حريريًّـا أحمر، أحبكته على جسدها فلف قوامها وأظهر رشاقته. ودهمته رائحة ياسمين مسكرة، خطت برشاقة أمامه تقوده إلى الأنتريه فرأى ردفيها يرقصان طربًا. جلس وجلست أمامـه واضعة سـاقًا فوق أخـرى فانفلتت من طرف الـروب بيضاء ناصعة، ممتلئـة وملفوفـة. قالـت: تشـرب إيه. أفلـت طرف الـروب فجـأة فاندلق صدرهـا منتصبًا أمامه، حبكته مرة أخرى وهبت واقفة، اقتربت منه ونظرت إلى بنطلونه، كان منتفخًا ومقبقبًا فانفرجت شـفتاها القرمزيتان عن ابتسامة إغواء. قالت: تعالى شـوف مصنعنا الصغير، سـحبته من يـده إلى الداخل، كانت أصابعها طرية ودافئة استكانت في كفه الكبيرة. وبحركة بدت عفوية لمسـت عضوه فأحسته صلبًا قويًّا، سمع شـهقة مكتومة صدرت منها، أرته حجرة صنع البلوفرات، ثم أخذته من يده فانساق وراءها مستسلمًا، اتجهت بـه إلى حجرة نومها، أوقفته على حافة السـرير والتصقت به وهمسـت: أنا النهـاردة ها فترسـك. كان هو مستسـلمًا لهـا ومنومًا، ووقفـت أمامه عارية وعـلا صوتها في اسـتثارة كاملة، وأخـذت تخمش ظهـره بأظافرها فاندفع إليها بكل رجولته».

***

«قالت إن أبرز ما يميزه هو طوله الفارع ووجهه الأسمر الوسيم، وإن عينيه السوداوين بنظراتهما الحزينة هما ما جعلاها تتعلق به، وقالت إنها وصفته لأختها فأحبته هي أيضًا على السماع لأنه يشبه ممثلًا هنديًّا. كان هو صامتًا طوال الوقت مشوش الذهن، ضربت له موعدًا آخر في حديقة الأورمان، ولدهشته وجد معها أختها كي تراه عن قرب، جلستا أمامه وظلتا تحدقان فيه طوال الوقت، تحدثت أختها عن ذلك الممثل الهندي والذي تحبه حب عبادة، وقارنت بينهما، قالت: أنت النسخة المصرية، لكن تعرف، أنت أكثر طولًا ووسامة منه، شعر بفرحتهما من تلك اللحظة وهما تغازلانه».

«وفاجأته بأنها تزوجت من ثري عربي، سافر وتركها، تزوجت في شقة مفروشة في وسط البلد، اصطحبته إلى الشقة، وهناك صارحته بأنها فعلت ذلك من أجله، أعطته كل ما تريد إعطاءه امرأة محبة لرجل، كانا يتقابلان يوميًّا في الشقة، وكانت هي مثل إسفنجة تريد امتصاصه لآخر قطرة».

***

في اليوم التالي كان على خالد التوجه إلى حي بولاق الدكرور لمقابلة محمد عبد السلام فرج الذي كان مقيمًا في بيت أحد الأصدقاء، كان محمد عبد السلام فرج عضوًا نشطًا في تنظيم الجهاد، بل كان أحد أقطابه المرموقين، وقد تعرف على خالد بالصدفة البحتة حين كان خالد يبحث عن شقة ليكمل نصف دينه، كان يبحث أولًا في مصر الجديدة حتى يكون بالقرب من أخته التي تقيم بها، ونظرًا لقدرته المحدودة، فقد توجه

إلى البحث عن شقة في أحد الأحياء الشعبية، وهكذا اتخذ من بولاق الدكرور منطقة بحث، وأحس خالد أثناء تجواله بالتعب، وحان موعد الصلاة فدخل إلى أحد المساجد ليصلي ويستريح. وهناك وجد محمد عبد السلام يجلس مع بعض الشباب يناقش معهم بعض أفكاره، جلس يستمع إليه فإذا به يحس ويتحمس لهذه الأفكار، اقترب منه ودارت بينهما مناقشة طويلة حول الدين انتهت بعرض عبد السلام في معاونة خالد في البحث عن شقة، كانت فكرة البحث عن شقة وسيلة تعزرت بها صداقة الاثنين.

دخل خالد على محمد عبد السلام فوجد عنده شابين ينتظرانه مع صاحب الشقة الذي كان ضابطًا سابقًا في الجيش أيضًا.

كان أحد الشابين اللذين جاء بهما محمد عبد السلام يدعى عطا طايل ضابط احتياط تخرج في كلية الهندسة ثم ترك الخدمة ليعمل في مجال تخصصه، أما الثاني وهو عباس محمد فكان يعمل جاويشًا بالقوات المسلحة مختصًا بالتدريب على الأسلحة النارية في مدرسة الدفاع المدني، وكان قد حصل على بطولة الجيش للرماية لسبع سنوات كاملة.

شعر خالد بالدهشة لتمكن محمد عبد السلام بمثل هذه السرعة من الحصول على مثل هذين الشابين بمثل هذه الكفاءة العالية.

وعلى الفور بدأ محمد عبد السلام الكلام قائلًا: أنتم مقبلون على مهمة استشهاد، فهل أنتم مستعدون؟ رد الجميع بالإيجاب.

وبدأ خالد يشرح خطته للباقين قائلًا إنه سوف يقود طابورًا مكونًا من اثني عشر مدفعًا عيار 131مم، وذلك في العرض العسكري السنوي

يوم السادس من أكتوبر أي بعد يومين من الآن وستكون مدافعه مشدودة بجراراتها التي تعتليها أطقم المدافع، وتبدأ الخطة ببساطة بأن يسهل للمشتركين معه دخول منطقة التجمع باعتبارهم جنودًا ملحقين بوحدته. وسوف يزودهم بخطابات مزورة تسهل لهم هذا الأمر، وسوف يسهل لهم ركوب نفس العربة التي يركبها والتي سوف تكون في مقدمة الطابور، فإذا ما اقتربوا من منصة العرض الرئيسية عليهم أن يتحركوا بأقصى سرعة لإطلاق النار على السادات، وأضاف خالد أن المسافة بين طابور العرض والمنصة حوالي ثلاثين مترًا؛ لذا فإنهم يستطيعون إطلاق الرصاص من العربة نفسها بينما يتقدم بعضهم في غمرة المفاجأة نحو المنصة لإكمال تنفيذ المهمة على أكمل وجه. عند هذا الحد أقسم الجميع على الولاء وحفظ السر.

رجع خالد إلى كتيبته ساهمًا حتى إنه لم يلحظ جمال الجالس على باب حجرته التي ما إن دخلها حتى أخذ في خلع بدلته العسكرية وتمدد على السرير وأغمض عينيه، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء بقليل، وكان الجميع ينامون الآن، ودخل عليه جمال وقال: تأمر بحاجة يا فندم؟ فتح عينيه ونظر إليه: انت لسه صاحي، شكرًا، روح انت نام. كانت الخطة كلها في ذهنه الآن، وأخذ يستعرضها نقطة نقطة بدقة حتى لا يترك شيئًا للظروف، فلا مكان الآن للمغامرة، فأرواح ناس معلقة بيديه، ومصير بلد بحاله سوف يحدده هو، واكتشف ثغرة فقفز من سريره معتدلًا. لم يفكر هو ولا أصدقاؤه في سائق الجرار الذي يجر المدفع، فسوف يركب معه أفراد طاقم الاغتيال، وربما كان سائق الجرار هو أحد العناصر الحاسمة في إنجاح العملية كلها، بل إنه الأهم، فلابد من ولائه التام وإلا فشلت. وبما

أنه ليس ضمن طاقم الاغتيال، فربما عصى أوامره وانطلق بالجرار لحظة تجاوزه للمنصة الرئاسية، وبذا تفشل خطة الهجوم. فكر خالد في استبدال السائق بآخر يعرفونه، ولكن من؟ وطرأت في ذهنه فجأة فكرة أن يشرك جمال، ثم استبعدها على الفور، فجمال لا يصلح من وجوه كثيرة، فهو جندي هارب وينتظر المحاكمة، ومن المفترض أن يكون محبوسًا، فلو أشركه فسوف يلقي الشكوك حول وجوده ضمن المجموعة، وقد يعرضها لخطر الانكشاف. فكر في حل ثان، أن يعطي السائق بعض الحبوب المنومة يومها، ثم يدعي بأنه مريض ويتم استبداله بآخر. واستبعد هذا الاحتمال أيضًا. كان الوقت يمر سريعًا، وكان عليه اتخاذ قرار بشأن السائق فما يتبقى من الوقت أقل من ثماني وأربعين ساعة على بدء تنفيذ العملية، وأخيرًا استقر رأيه على ترك السائق وشأنه، وباعتباره قائد المجموعة، فسوف يجلس بجانب السائق، وسوف يتولى تهديده وتخويفه لحظة التنفيذ. كان قد أوصى محمد عبد السلام بإحضار بعض الأسلحة والذخائر فجاءه بها، إحدى وثمانين طلقة بينها أربعة تحمل علامات خضراء تشير إلى أنها من النوع الخارق الحارق، عدا بعض القنابل اليدوية.

القاهرة في الثلاثين من شهر يولية.

حبيبتي.

لا تظني أنني سوف أجعلك تنعمين بالهروب مني، فسوف أطاردك حتى أقاصي العالم، مضى أسبوع منذ أن فارقتني، وأشعر أن روحي طارت معك، منذ ثلاثة أيام، احتفلت بعيد ميلادي، ورغم وجودي وسط أهلي، إلا أنني كنت أنا وأنت فقط نحتفل به، فقد ولدنا في نفس اليوم معًا، وربما كانت

الساعة والدقيقة واحدة، وظللت أبحث عنك طوال عمري حتى وجدتك، فهل أضيعك؟ أتذكر كل أحاديثك التليفونية الليلية، وصوتك الملائكي يرن في أذني فينزل بردًا وسلامًا على قلبي المحب، أنا لا أطلب منك أولًا وأخيرًا أن تحبيني بمقدار حبي لك، ولو أني أتصور أن حبي لو نزل على جبل لخر له ساجدًا من شدته، فما باله بك أنت المرأة الأرق من نسمة، وأجمل من ملك، فلن تكوني امرأة أبدًا ما لم تنصهري في أتون عشقي، تسأليني مرارًا وتكرارًا ماذا تعني تلك الأحاسيس، هل هي الحب؟ وما هو الحب؟ وقلت لك إنه الحب بلا شك، سمِّه كما شئتِ، سمه حبًّا، أو ولهًا، أو أي شيء، لكن اعلمي أن كل طرقي تؤدي إليه، وقلت لي إنك ما أحببت من قبل لذا فلا تعرفين ما هو الحب الحقيقي. وقلت لك إني بخبرتي وقراءاتي بت على يقين من أنه الحب. وقلت لي حدثني إذن ماذا قرأت، وها أنذا ألبي وأحدثك حديث الأمم الغابرة عن العشق والحب والمحبين ثم أبين لك علاماته علك تسلكين مسالكه وتصبحين من شهدائه؛ ففي الحديث: إن من عشق فظفر فعف مات شهيدًا. واعلمي أيتها الحبيبة أن أول العشق الاستحسان، ثم المودة والخلة، والهوى، ثم العشق، والكلف، ثم الغرام، والتتيم أن يصير المعشوق مالكًا للعاشق، لا يوجد في قلبه سواه، ثم يزيد التتيم فيصير ولهًا، ومن أسمائه الشغف، المودة، الوجد، الأسف، الجوى، والدنف والصبوة والصبابة والشجو والخلابة والتباريح والغمران والشجن واللاعج والوصب والحرق والسهد واللهف والحنين والتحرف والأنين والاستكانة واللوعة والفتون والشجون والمس والجنون واللمم والخبل واللب المسلوب من أسمائه أيضًا.

حبيبتي، اتهمتني بالهذيان، تقولين لي: جننت بمن تهوى

فأقول: العشق أعظم مما بالمجانين

العِشـقُ لَيسَ يُفِيـقُ الدَّهْـرَ صَاحِبُهُ وَإِنمَـا يَصْـرَعُ المَجْنُونَ فـي الحِينِ

وأزيدك فأقول حتى يحن إليّ فؤادك:

ولَسْـتُ أُبالـي حيـنَ أَلقـاكِ خَاليًـا رَأيـتُـكِ عَينًا أَمْ تَـــراكِ مَنيَّـتي

لأَنِـك فـي الحَالَيـنِ عنـدِي بِمَنزِلٍ تُمـازِجُ رُوحَيْنـا وَسَـاوِسُ فِكرَتـي

فَأَنْـتِ أَنـا، لا بَـلْ أَنـا أَنْـتِ مَـا هي عَلى النِّصفِ مِنْ شَطْرَيكِ ألحن بحَّجتي

فَآخـذُ نِصفَ النِّصْفِ مِنكِ بحُجَّتِي وَأَتـرُكُ نِصْـفَ النِّصـفِ مِنـكِ للذَّتِـي

فهلا ثبت فؤادك على عشـقي، وهلا تيقنت من قوة إرادتي في غرامي بك.

وهلا أصبحت على يقين من عدم اكتمال عشقي وعشقك إلا بقولك: يا أنا. قوليها إذن، فسـوف يسمعها قلبي عبر آلاف الأميال التي تفصل بيننا. في انتظار ردك.

المخلص

***

أخـذ خالـد في ترتيـب أمـوره بعنايـة شـديدة، كانـت أدق التفاصيل حاضـرة فـي ذهنـه، تخلص مـن أحـد الجنـود النظاميين فـي وحدته ممن سـوف يسـتقلون جـرار المدفـع، وبالصدفـة البحتـة فـإن جنديًـا آخر وقع فريسـة المرض فجأة مما تحتـم إعطاؤه إجازة، ثم أرسـل ثالثًا في مأمورية

خـارج القاهـرة تتطلب تغيبه عدة أيـام، وهكذا أخلى مكانًـا لزملائه، وقيل لبقيـة أعضـاء وحدة المدفع إن ثلاثة جنود سـوف يضافون من الخارج إلى قوتها، وسرت شائعة غامضة بأن هؤلاء الثلاثة قادمون من فرع المخابرات العسـكرية لكـي يتولـوا مسـئولية الإجـراءات الأمنيـة أثناء العـرض؛ نظرًا للموقف المتوتر السـائد عمومًا في البلاد بسـبب التطورات الأخيرة، وفي المسـاء، التقى بزملائـه وأخبرهم بالترتيبات التي حدثت وأن المسـرح قد هيـئ لهم، كانت الليلة الأخيرة قبل بـدء العرض، وكان عليهم الدخول من الآن إلـى منطقة العـرض والمبيت بها، فقد كانت التعليمات مشـددة بعدم دخـول وخروج أحد بعد اليوم؛ لذا فقد اسـتقر الـرأي على أن يذهب خالد لزيارة شقيقته في مصر الجديدة، ثم يقابلهم أمام «الميريلاند» وسوف يقود بنفسه سيارة محمد عبد السلام وهم فيها إلى حيث منطقة التجمع للعرض، وقد قام بتزويدهم بتصاريح مزورة تسـمح لهم بالدخول إلى المنطقة، على أن يسبقوه ثم يلحق بهم بعد ذلك.

كان عطـا طايـل وعبـاس محمـد ومحمـد عبـد السـلام قـد ارتـدوا أفـرولات جيـش قديمة، نـزل الثلاثة مـن السـيارة على بعد حوالـي مائتي متـر من بوابة منطقة التجمع، ودخلوا دون أن يسـألهم أحد عن التصاريح، توجهـوا إلى خيمة خالد وسـألوا عنـه فقيل إنه ليس موجـودًا، وكان جميع مـن بالوحـدة يتوقع وصولهـم بناء على تنبيهات سـابقة من خالد، جلسـوا بجوار خيمته في انتظار وصوله، ووصل خالد بعد ربع ساعة يحمل في يده حقيبة سامسـونايت كانت تحتـوي على الذخيرة المطلوبـة لتنفيذ العملية، حيا الثلاثة بطريقة رسـمية حتى لا يشـك أحد بمعرفته السـابقة بهم، ثم أمر بصرف ملابس عسكرية جديدة لهم.

فكر خالد في اصطحاب «جمال» إلى منطقة العرض كجندي مراسلة له، وكان جمال قد عرض عليه رغبته في رؤية العرض عن قرب، لكن خالد كان يعلم استحالة حدوث ذلك، فإن جمال كانت له ظروفه التي كانت تحول دون ذلك، فهو حسب وضعه الرسمي، محسوب على قوة سجن اللواء، وليس له الحق في الخروج من حيز اللواء أو كتيبته؛ لذا فقد اعتذر له وقال له جملة عابرة لم يفكر فيها جمال في حينها، لكنه سوف يتذكرها فيما بعد: لو حدث لي شيء تذكَّرني. ثم تركه ومضى ساهمًا واجمًا.

***

القاهرة في السادس من أغسطس

حبيبتي

أرسل إليك رسالتي الثانية على أجنحة الطير علها تصل وتحط في قلبك مباشرة.

أرسلت لك رسالة قبل ذلك ولم تردي فخشيت ألا تكون قد وصلت إليك، وإذا لم تصل إليك فسوف ألخص وأوجز ما كتبت سابقًا، حدثتك عن تعريف الحب، وعلاماته، وأسمائه المختلفة، وسقت إليك كل الحجج والبراهين على أن ما أحس به نحوك هو الحب بلا شك، وأن عشقي زائد على حده، وأنه لو نزل على جبل لخر له صعقًا من شدته، فما باله وإن نزل على امرأة أرق من نسمة، وأجمل من ملك مثلك، لكنها لم تعرف الحب قبلًا، امرأة لا تؤمن بغير العقل، لا تعرف الحب إلا أنه علاقة بيولوجية بين جسدين. أقول لك أخطأت يا صغيرتي، ودعيني أتوسل بالشعر إذ يقول:

وَمَا صَـوَّرَ الرَّحْمَـٰنُ أَجْمَـلَ مَنْظَرًا مِـنْ عَاشِـقَينِ عَلـى فِـرَاشٍ وَاحِـدِ

ويقول:

الـحُـبُّ مَـيـلٌ يَـهـيـمُ بِـهِ قَلْبُ المحِبِّ فَيلقَى الموتَ كاللَّعِبِ
يَكُـونُ مَبـدَؤُهُ مِـنْ نَظْـرَةٍ عَرَضَـتْ أَوْ فَرْحَةٍ أُشْعِلتْ في القَلْبِ كَاللَّهبِ
كَالنَّـارِ مَبدَؤُهـا مِـنْ قَدْحَـةٍ فَـإِذا تَضرَّمَتْ أَحْرَقَتْ مُسْتَجمعَ الحطَبِ

وإني أقول لك:

وَمـا حُـبـي لـفـاحِـشَـةٍ وَلَـكِـنْ رَأيـتُ الحُبَّ أَخْـلاقَ الـكِـرَامِ

وأقول أيضًا:

إِذا أَنْتَ لَمْ تَعشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الهَوى فَكُنْ حَجرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جُلْمُدا

وأخيرًا أقول:

قيل في الأثر ماذا تقول في واحد لا عشق ولا اتمعشق

قال: يعيش حمار ويموت حمار.

آسـف لفظاظتي، لكن أردت إيصال المعنى لما أريد بكل الطرق، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

حبيبتي

دعينـي أذكـرك بحديث دار بيننا ذات مسـاء، أذكر أنـكِ قلتِ لي إنك أحسسـت منذ عشر سنوات تقريبًا بميل إلى شـخصية معروفة، وإنك كنت

على أتم استعداد لتقديم أية تنازلات له، فقط لو هو كان يريد ذلك، أو لو أنه أعطاك من وقته ما تستحقين، لكنه تجاهلك، وأنت صدمت في مشاعرك، إذن فقد ذقت مرارة التجاهل، فهل من ذاق الظلم يَظْلِم، إني أعيذك من أن تكوني ظالمة، وأعيذك من تجاهل تلك المشاعر الإلهية، وأعيذ هذا القلب من الجمود، فأولى به أن يخفق لهواي، وأولى به أن ينصهر ويُحْرَقَ في ضرام عشقي. ثم أولى به أولى أن يعشق ويُعشق، وقديمًا قيل إن الموت سهم يصوب إليك لحظة مولدك، وإن حياتك بقدر وصول السهم إليك، دعيني أطور المعنى وفق هواي فأقول أنا العاشق المتعشق، إن حبي سهم صوبته إليك منذ بدء خليقتك وسوف يصل إليك لا محالة، فليس عندي شك في ذلك، ولحظتها فقط، سوف تعرفين ما هو الحب، إنه لا يُعرّف، لكن يحس، وإلى أن يصلك سهمي، لك مني باقة من العشق، ولي السلوان والتصبر.

المخلص

كان يوم الثلاثاء السادس من أكتوبر هو يوم العرض الكبير. استيقظ خالد في الساعة الثالثة صباحًا وقام بإيقاظ أفراد وحدته، كان على الجميع الاستعداد للتحرك في تمام الساعة السادسة صباحًا، ذهب إلى خيمة تجميع الأسلحة واختار أربعة مدافع رشاشة وتأكد من تعميرها واختبارها بنفسه، وكان في الليلة السابقة قد طلب من أحد رفقائه القيام بهذه المهمة، وأن يميز المدافع الأربعة بخرق صغيرة من القماش توضع في فوهاتها، وقد اكتشف بالصدفة أن إبر ضرب النار في المدافع الأربعة غير صالحة، على أنه لم يعد في حاجة إليها فقد كانت الخيمة مليئة حوله بإبر ضرب

النـار التي نزعت من كل الأسـلحة الموجودة بالوحدة، فقد جاءت الأوامر بتخزين جميع الأسـلحة الصغيرة فـي خيم خاصة حددت لهذا الغرض في كل وحدة، كما نودي في كل الوحدات المشـاركة بأمر يقضي بنزع كل إبر ضرب النار من جميع الأسلحة وتسليمها لقائد كل وحدة، وكان على خالد اسـتلام إبر ضرب نار وحدته باعتباره قائد مجموعة العرض. وقبل الساعة السادسة بقليل كانت الوحدة جاهزة ومستعدة، وقام خالد باستعراض سريع لـكل نقاط خطته وكل الاحتمالات فاطمأن قلبه، ولم يبت أمامه سـوى أن يخفـي القنابـل اليدوية تحت مقعد جـرار المدفع الذي سـيركب فيه، لكن سـائق الجـرار كان ملازمًا له كظله، فأخذ يفكر في وسـيلة لاسـتبعاده ولو لعدة دقائق كافية لإنجاز ما يريد، أخرج من جيبه نقودًا أعطاها للسائق طالبًا منه شـراء «سندويتش» لأنه لم يفطر بعد، وفور تحرك السائق وضع القنابل فـي موضـع أمين بحيث تكـون قريبة من يـده عند اللزوم، الآن، كل شـيء أصبح جاهزًا للاستعراض الكبير.

اسـتيقظ السـيد الرئيـس فـي الثامنـة والنصـف صبـاح يـوم الثلاثـاء السـادس مـن أكتوبـر فـي بيتـه بالجيـزة، وكعادته، قـام ببعـض التمرينات الرياضيـة أمام مدلكـه الخاص الذي باشـر عملية التدليك بنفسـه، ثم أخذ دشًّا بعدها، وجلس يتناول إفطاره الأخير مستعرضًا أهم ما جاء في صحف الصباح، كانت عناوين الصحف الرئيسـية تتحدث عن العرض العسـكري الكبير الذي سـوف يقام في هذا اليوم وعن الأسـلحة الجديدة التي سـوف يشـاهدها كل من في العـرض بما فيها طائرات الفانتـوم الأمريكية ومدافع 131مـم وعرباتها المدرعة، إلى جانب طائرة الميراج 2000، أيضًا طائرات

هليكوبتر جديدة ستظهر لأول مرة بما فيها الهليكوبتر الأمريكية «شينوك» والبريطانية «س كنج» والفرنسية «جازيل» هذا علاوة على الأسلحة الشرقية والتي تمثل نصف تسليح الجيش بينما النصف الآخر أسلحة غربية، وبهذه التركيبة في التسليح فإن الصحف نشرت تقريرًا من معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن يقول إن الجيش المصري يعد من أقوى الجيوش في الشرق الأوسط.

واهتمت الصحف أيضًا بتصريح وزير الداخلية الذي يفيد بأن سلطات الأمن المصرية تعرف كل خفايا تنظيمات الإخوان المسلمين السرية، وأن قادة الإخوان المسلمين يرتكبون غلطة عمرهم إذا هم حاولوا الإتيان بأية نشاطات، سواء أكانت سرية أم معلنة، وأضاف وزير الداخلية في تصريحه: إننا نعرفهم جميعًا، القدامى أو الجدد، ونحن نراقبهم جيدًا.

ونشرت الصحف أيضًا أنباء عن اجتماع اللجنة البطريركية المؤقتة التي تشكلت بعد احتجاز البابا شنودة، وبأن هذه اللجنة خاضعة تمامًا لتعليمات الحكومة المصرية، كما نشرت تقريرًا عن الراهب متى المسكين الذي صرح بأن الإجراءات التي اتخذها السادات قد أنقذت مصر من فوضى الفتنة الطائفية، وأخيرًا كان اهتمام الصحف واسعًا بمقال كتبه السيد الرئيس ونشر في جريدة مايو تحدث فيه عن فترة هروبه وتنكره وعمله كمقاول، وهي القصة التي لم يكن يمل من تكرارها في جميع وسائل الإعلام المختلفة، كان يحب رواية القصص في كل المناسبات، وفي كل مرة كانت القصة تُروى بطريقة مختلفة، في هذه المرة كانت القصة بعنوان «سائق من دمرو» وهي عن الرجل الذي قابله في سيارة نقل وقدم له

مقعدًا وكيف أن الرئيس لم ينس له هذا المعروف، ونشرت الصحف صورة للرجل والرئيس يسلم عليه ويهديه تذكرتي سفر للحج هو وزوجته.

انتهى السيد الرئيس من تناول فطوره، وفرك يديه ارتياحًا، فكل شيء تمت السيطرة عليه، من يعارضونه وضعوا في المعتقلات، الجماعات الدينية سواء مسلمين أو مسيحيين تم اعتقالهم أيضًا رهنًا للمحاكمة، رجال الفكر والسياسة والأدب والصحفيون المشاغبون تم تقليم أظافرهم ولا يوجد في الشارع الآن سوى المؤيدين، أخيرًا كان يريد اليوم الظهور أمام جمهوره ظهور الأقوياء الناجحين، ارتدى حُلة عسكرية جديدة وصلته قبل أيام من الترزي الخاص الذي يصنع له خصيصًا بدله العسكرية. كانت زوجته تقف أمامه تتأمل بدلته الجديدة وتبدي ملاحظاتها على مظهره، ولاحظت أنه لا يرتدي تحتها قميصه الواقي من الرصاص، ورفض هو ارتداء القميص لأنه سوف يؤثر على انسجام البدلة الجديدة. فرغ من ارتداء ملابسه وبدأ في وضع وشاح العدل فوق حلته العسكرية، وقرر أن يذهب إلى ساحة العرض في عربة مكشوفة، فاليوم، سوف يكون محاطًا بجيشه. ويجب أن يكون في غاية اللياقة ويثبت للعالم كله أنه لا يخشى شيئًا، وأنه أقوى من كل الظروف المحيطة به، ونزل السيد الرئيس إلى حيث وقف المرافقون الذين سوف يصحبونه إلى ساحة العرض في سيارته، ناسيًا أن يأخذ معه عصا القيادة التي لازمته خلال صعود نجمه حتى جلوسه على الكرسي الرئاسي، وكان هذا نذير شؤم لم يلحظه سيادته، ووصل إلى ساحة العرض في كامل زينته، وأخيرًا جلس وأشار إلى شيخ الأزهر والأنبا صموئيل أن يجلسا بجواره واحدًا عن يمينه والآخر عن شماله حتى تكون الصورة أكثر

ردًّا على من يقولون بالفتنة الطائفية، وبدأ العرض. وبدأ تشكيل من طائرات الفانتوم يقوم ببعض الألعاب الجوية، وبدأ السيد الرئيس يتجه بوجهه نحو الفضاء متتبعًا روحه التي سوف تصعد بعد لحظات، وصاح المذيع: والآن تجيء المدفعية، وجاءت الأوامر لخالد بالتحرك، وكان الجرار الذي يركبه في مقدمة الطابور، وعند الاقتراب من المنصة ارتجت إحدى القاطرات وبدا أنها تنحرف إلى يمين المنصة، وظن البعض أن عطلًا أصابها، وكان خالد قد أخرج مسدسه آمرًا السائق بالتوقف، وبمجرد توقف الجرار قفز خالد منه وألقى أول قنبلة في اتجاه ساحة العرض لتشتيت الانتباه، في نفس الثانية كان عباس محمد قد وقف في العربة وأخذ يطلق مدفعه الرشاش في اتجاه الرئيس، وأصابت الرصاصة الأولى السيد الرئيس في عنقه، وأخذ يترنح ثم سقط على أرض المنصة، ووصل خالد إلى حيث كان يجلس الرئيس على المنصة وأخذ في تفريغ خزنة مدفعه على الجسد المتكوم على أرضية المنصة الذي بدا بلا حراك وقد غمرته الدماء.

***

كان خالد قد أخبر جمال بأنه سوف يبيت في مكان العرض، وأنه إذا شاء يمكنه النوم في حجرته، وما إن غادر أفراد الكتيبة المعسكر في طريقهم إلى العرض حتى أغلق جمال الحجرة على نفسه واستلقى على السرير وأخذ يحملق في سقف الحجرة، وشعر فجأة بصداع عنيف يجتاحه من أسفل رقبته حتى جبهته فأخذ يحرك رقبته في كل الاتجاهات عَلَّ ضغط الصداع يخف قليلًا، فلما لم يفلح قرر وضع رأسه بين مخدتين يعتصر رأسه بينهما بذراعيه، وبدأ الألم يخف قليلًا. وأحس جمال بالراحة فنام.

***

كان كلمـا ذهب إلـى أبيها، وجدها تنظر إليه من فوق السـرير الوحيد في الحجرة، كان جسـدها الممدد أمامه جميلًا وأسطوريًّا، واعترف لنفسه فيمـا بعد أنه لم ير أنفًا أو ذقنًا بمثل هذه الدقة والجمال، سـرعان ما أخذت منه موعدًا في غفلة من أبيها، وتقابلا عدة مرات بالخارج، ورأى في عينيها عطشًـا لا يرتـوي للحـب، اتفقت معه علـى اللقاء في الحجـرة بعد خروج أبيها إلى عمله، لن تغلق الباب وراءه، بل سـوف تتركه مفتوحًا. في السابعة والنصـف صباحًـا كان يدفع البـاب برفق، دخـل وأغلقـه وراءه بالترباس، ولابـد أنهـا نامت، فقد كانـت مغلقة العينيـن وممدة بكامـل أنوثتها، صعد بجانبهـا وبـدأ مداعبتهـا ففتحت عينيها ببـطء دون مفاجأة بمـا يحدث، بل تمطـت وتثاءبت بإغراء وفتنة، ثم احتوته بين ذراعيها وسـرعان ما ذاب في بدنها الملفوف.

***

فـي الثامنة صباحًـا، كان يطرق الباب الداخلـي للفيلا، وظل الجرس يرن فترة طويلة قبل أن يفتح الباب، وظهرت سارة على مدخله، كانت نائمة وشـعرها يغطي وجهها وقد ارتدت شـورت وبلوزة قصيرة أظهرت بطنها، تركته على الباب ودخلت فدخل وراءها وأغلق الباب، ووجد نفسه وحيدًا فـي الصالـة لا يعرف ماذا يفعل، وجاءه صوتها ناعسًـا: أنا هنا، تعالى، تتبع مصدر الصوت فوجد نفسه في غرفة نومها، كانت نائمة على بطنها ورأسها مدفون بين وسادتين، وقف يتأمل تكوين جسدها البديع للحظات، ولما لم تنتبه له جلس على حافة السـرير ومرر أصابعه على ظهرها وردفيها بحركة

يعرف تأثيرها جيدًا، ولم تبد مقاومة، بل استسلمت لأصابعه، فتذكر أن عليه بدء العمل فصعد بجانبها، تعرف، أنا أحس بنفس شعورك ودائمًا ما يتملكني إحساس بالضياع وخراب النفس. قال: سرقوا أحلامنا ولاد الكلب، باعوا كل شيء ولم يتركوا لنا أي شيء، سلسال لا ينقطع من الخونة والأفاقين ولا فائدة فكل شيء في سبيله للانهيار، كانوا يطوفون حواري بولاق الدكرور ومن خلفهم النساء يرتدين الملابس السوداء والجميع يهتفون الوداع يا جمال يا حبيب الملايين وأوقفهن أمامه كلهن صفًّا واحدًا: نادين، غادة، زوزو، أمينة، سارة، عفاف، ومارس معهن الجنس دفعة واحدة وأخذ عضوه ينتفخ فضغط عليه بشدة حتى انفجر وراح في النوم.

***

صحا جمال من نومه على صوت جلبة شديدة، فتح عينيه فوجد نفسه محاطًا بوجوه لم يرها من قبل، كانت الحجرة ملآنة برجال يرتدون ملابس عسكرية ومدنية، أوقفوه وأخذوا يفتشون السرير وتحت السرير ومزقوا المراتب والمخدات، كانوا يبحثون في كل شيء: في الدولاب، في الكتب والدفاتر، وأخيرًا أخذوا كل شيء معهم واقتادوه أمامهم، وأحس جمال أن مصيبة حدثت، فقد رآهم يقتادون قائد الكتيبة أيضًا وبعض الضباط صغارًا وكبارًا ودفعوا بهم إلى عربة كانت تقف أمام بوابة اللواء، وتساءل جمال بينه وبين نفسه: ما الذي حدث؟ وجاءت الإجابة من أحد الضباط: عملها خالد وقتل السادات. وأخذ جمال نفسًا عميقًا، وزايله فجأة الصداع الذي دهمه منذ ليلتين، وأحس براحة عميقة، وطوال الطريق، كانت حياته كلها

تمـر أمامه بـكل تفاصيلها، ولم يلحظ أحد العرق يغمـر وجهه الذي أخفاه بيـن كفيه، كان يشـعر وقتهـا بالعار لحياته السـابقة، هروبه المسـتمر وعدم مواجهة كل مشـاكله، وأخذت دموعه تنسـاب في صمت، وتراءى له خالد وهو يبتسم له، فمسح وجهه بكم أفروله وغمغم وهو يهز رأسه: نعم، يجب أن أكون مثلك وأواجه مصيري.

***

المحققون

نهـار آخـر يمضي مثـل كل النهـارات السـابقة، وهو وحـده يقبع في زنزانته التي لا تزيد على متر في متر، لا شيء يحدث سوى استدعائه ثلاث مرات يوميًّا، مرة في الصباح الباكر حيث يتم استجوابه مدة ثلاث ساعات، ومـرة بعد الظهيـرة، وثالثة قبل منتصف الليل، نفس الأسـئلة تتكرر، ولكن بعـدة صيـغ مختلفة: س: ما الـذي تعرفه عن خالد؟ ما هـو دورك في تدبير الاغتيـال؟ مـا المهمة التي كلفك خالد بالقيام بهـا؟ ما الذي قاله لك؟ آخر كلماتـه إليـك؟ علاقتك بالآخرين؟ كيـف تعرفت عليهم؟ كيـف تم اللقاء بهـم؟ أيـن كنتم تجتمعـون؟ ما الـذي كنتم تتحدثـون فيه وعنـه؟ هل كنتم تدبـرون لقلـب نظام الحكـم؟ ما هي القيـادات التي كنتم تنـوون اغتيالها؟ كيـف حصلتم على الأسـلحة؟ هل تم تمويلكم مـن جهة ما؟ من هي؟ هل للموسـاد دخل في عمليـة الاغتيال؟ وهل تم التعاون مـع مخابرات بعض الدول؟

كانـوا يلاحقونـه بالأسـئلة، وكان يحاول الإجابة على قدر ما تسـعفه بديهته، كان يهز كتفيه في البداية دون أن يفهم معنى لما يحدث أمامه، وربما كانت الأسئلة أيضًا بلا معنى، لكنهم كانوا يلاحقونه، وما كانوا ليكتفوا بهز كتفيه، بل كانوا يريدون إجابة شافية عن كل الأسئلة.

«وفي ذلك اليوم أعني يوم السـبت وقعت نادرة عجيبة وهو أن ساري عسـكر كلهبـر (المعروف باسـم كليبر) كان مع كبير المهندسـين يسـيران بداخـل البسـتان الذي بـداره بالأزبكية فدخل عليه شـخص حلبي وقصده فأشـار إليـه بالرجوع، وقال لـه مافيش وكررهـا، فلم يرجـع وأوهمه أن له حاجـة وهـو مضطر في قضائهـا، فلما دنا منه مد إليه يده اليسـرى كأنه يريد تقبيل يده فمد الآخر يده فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشـق بطنه وسـقط إلى الأرض صارخًـا فصاح رفيقه المهندس فذهب إليه وضربه أيضًا ضربات وهرب. فسـمع العسـكر الذين خـارج الباب صرخة المهندس فدخلوا مسـرعين فوجـدوا كلهبر مطروحًا وبـه بعـض الرمق ولم يجـدوا القاتل فانزعجـوا وضربوا طبلهـم وخرجوا مسـرعين وجـروا مـن كل ناحيـة يفتشـون عن القاتـل واجتمع رؤسـاؤهم وأرسـلوا العسـكر إلـى الحصـون والقلاع وظنـوا أنها من فعـل أهل مصر فاحتاطـوا بالبلد وعمروا المدافع وحرروا القنابـر وقالوا لابد من قتل أهل مصر عن آخرهم ووقعت هوجة عظيمة في الناس وشـدة انزعاج وأكثرهم لا يـدري حقيقة الحال، ولا يزالون يفتشـون عن ذلـك القاتل حتى وجدوه منزويًا في البسـتان المجاور لبيت سـاري عسـكر المعـروف بغيط مصباح بجانـب حائـط متهدم فقبضوا عليه فوجدوه شـاميًّا فأحضروه وسـألوه عن

اسـمه وعمره وبلده فوجدوه حلبيًّا واسمه سـليمان فسألوه عن محل مأواه فأخبرهم أنه يأوي في الجامع الأزهر فسألوه عن معارفه ورفاقه، وهل أخبر أحدًا بفعله وهل شاركه أحد في رأيه وأقره على فعله أو نهاه عن ذلك وكم لـه بمصر من الأيام أو الشـهور وعـن صنعته وملته وعاقبـوه حتى أخبرهم بحقيقة الحال» .

***

لحظـة خروجه مـن حجـرة التحقيق لمح خالـد في الممـر المفضي إلـى الحجرة التي خرج منها توا، كان مكبـلا بالأغلال من يديه، على يمينه رجل يمسـك بذراعه، وعلى يساره أيضًا ومن خلف وأمام، التقت عيونهما فابتسم خالد ابتسامة خفيفة وهز رأسه له، أما هو فقد تمتم: سليمان الحلبي قتل ساري عسكر كلهبر مرة أخرى.

***

«بيان شرح الاطلاع على جسم ساري عسكر العام كلهبر يوم الخامس والعشرين من شهر برريال من السنة الثامنة من انتشار الجمهور الفرنساوي نحن الواضعون أسـماءنا وخطنا فيه باش حكيم والجرايحي من أول مرتبة الـذي صار مرتبة باش جرايحـي في غيبته انتهينا حصة سـاعتين بعد الظهر إلى بيت سـاري عسـكر العام في الأزبكية بمدينة مصر وكان سبب روحتنا هو أننا سـمعنا دقة الطبل وغاغة الناس التي كانت تخبر أن سـاري عسـكر العـام كلهبـر انغـدر وقتـل. وصلنـا له فرأينـاه في آخـر نفـس، فحصنا عن جروحاتـه فتحقـق لنا أنه قـد انضرب بسـلاح مدبب وله حـد. وجروحاته كانـت أربعـة الأول منها تحت الصدر في الشـقة اليمنـى، الثاني أوطى من

الأول. جنب السوة، الثالث في الذراع الشمال نافذ من شقة لشقة والرابع في الخد اليمين، فهذا حررنا البيان بالشرح في حضور الدفتردار سارتلون الذي وضع اسمه فيه لأجل أن يسلم البيان المذكور إلى ساري عسكر مدبر الجيوش، تحريرًا في سراية ساري عسكر العام في النهار والسنة المذكورة في الساعة الثالثة بعد الظهر بإمضاء باش حكيم وخط الجرايحي.

«وصل السيد رئيس الجمهورية إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادي والساعة الواحدة وعشرين دقيقة بعد ظهر اليوم – مساء الثلاثاء 6 / 10 / 1981 – وأظهر الكشف الطبي ما يلي:

1- كان سيادته في حالة غيبوبة كاملة – النبض وضغط الدم غير محسوسين وضربات القلب غير مسموعة – حدقتا العين متسعتان ولا يوجد بهما استجابة للضوء – فحص قاع العين أظهر وجود أوعية دموية خالية من الدماء – لا يوجد حركة بالأطراف تلقائية أو بالإثارة، عدم وجود الانعكاسات الغائرة والسطحية بجميع الأطراف.

2- وجود فتحتي دخول في الجهة اليسرى من مقدم الصدر أسفل حلمة الثدي اليسرى.

3- وجود جسم غريب محسوس تحت الجلد في الرقبة فوق الترقوة اليمنى.

4- وجود فتحة دخول أعلى الركبة اليسرى من الأمام وخروج بمؤخر الفخذ اليسرى، مع وجود كسر مضاعف في الثلث الأسفل لعظمة الفخذ الأيسر.

5- جرح متهتك بالذراع الأيمن من الأمام أسفل المرفق.

6- أمفزيما جراحية بالصدر والرقبة وحول العين اليسرى.

7- دم متدفق من الفم.

وقد تم نقل سيادته إلى قسم الرعاية المركزة - لجراحة القلب والصدر بالمستشفى وأجريت له الإسعافات العاجلة الآتي بيانها:

1- وضع أنبوبة قصبة هوائية بعد تفريغ البلعوم مما فيه من دماء متجلطة وبدأ عمل التنفس بواسطة جهاز التنفس الاصطناعي.

2- تدليك خارجي للقلب.

3- إعطاء منشطات القلب اللازمة لمثل هذه الحالات بالحقن داخل القلب مباشرة.

4- نقل دم من نفس فصيلة سيادته بكميات كافية خلال عدد من الفتحات على الأوردة.

5- وضعت أنبوبة داخل القفص الصدري بالجهة اليسرى لتفريغ الهواء والدم المتجمع.

6- تم توصيل سيادته على أجهزة مراقبة القلب مع تسجيل مستمر للضغط والنبض ورسم القلب، وكذلك توصيل جهاز رسم المخ الكهربائي لتسجيل نشاط المخ ودرجة حيويته.

7- لم يستجب القلب للتدليك الخارجي، وتم عمل صدمات كهربائية للقلب كمحاولة لتنشيطه.

8- لما لم يستجب القلب لكل هذه الإجراءات. تم فتح التجويف الصدري الأيسر لعمل تدليك داخلي للقلب ووجد القلب مشرفًا على حالة استرخاء كامل، وكان جذر الرئة اليسرى متهتكًا بما فيه الأوعية الدموية الكبرى مع تهتك كامل بالرئة وتجمع دموي متجلط داخل التجويف الصدري.

9- استمر عمل التدليك الداخلي للقلب مع إعطاء العقاقير المنشطة واستمرار التنفس الصناعي.

10- في خلال ذلك تم عمل الأشعات التالية:

أ - أشعة على الصدر أظهرت وجود شظايا متعددة داخل الجهة اليسرى من التجويف الصدري وكذلك رصاصة على الترقوة اليمنى مع وجود أمفزيما جراحية وكسور بالضلوع وتهتك بالرئة اليسرى.

ب- أشعة على الفخذ اليسرى أظهرت وجود كسر متفتت بالثلث الأسفل من عظمة الفخذ.

جـ - أشعة على الجمجمة وكانت سليمة.

د- أشعة على الساعد اليمين وكان سليمًا.

11- في تمام الساعة الثانية وأربعين دقيقة بعد ظهر يوم الثلاثاء 6 أكتوبر أظهر رسم القلب عدم تسجيل أي نشاط له، وأظهر رسم المخ توقفًا كاملًا له عن العمل تأكيدًا لحدوث الوفاة.

واعتبر سبب الوفاة صدمة عصبية شديدة مع نزيف داخلي بتجويف الصدر وتهتك بالرئة اليسرى والأوعية الدموية الكبرى بجذر الرئة اليسرى.

توقيع

***

زنزانة

كأن حياته تحولت إلى عدة زنازين فمن زنزانة لأخرى ظل متنقلًا عدة سنوات لا يدري عددها، منذ أن قبض عليه في المرة الأولى، من زنزانة تسلمه لأخرى، ربما كانت زنزانته هذه هي الأقسى والأكثر رهبة ووحشة منذ أن عرف طريقه إليهم، كانت زنزانته الأولى أكثر حنوًّا وونسًا، كانت داخل أحد أقسام الشرطة، تذكر لحظة القبض عليه ووضعه بداخلها، كان أول ضوء للنهار يتسلل من الشباك الصغير الوحيد ذي القضبان الملفوفة بالسلك المخرم، واهنًا لا يكاد يبدد الحلكة الداكنة بالداخل، بينما الشمعة التاسعة أو العاشرة الملصوقة بالجدار تجود بآخر ضوء لها فتتراقص ذؤابتها قبل أن تغرق في السائل الشمعي وتنطفئ. تململ هو في وقفته وأخذ ينقل ثقل جسده من ساق إلى أخرى. كان أول من لمح الجندي على باب الزنزانة من وقفته خلف شباك صغير داخل حمام يطل على الطرقة الداخلية للقسم، ظل واقفًا طوال الليل، ومنذ مجيئه، فقط ليستطيع التنفس، حين انفتح الباب ودخل، دهمته رائحة نتانة وعفونة فكاد يتقيأ، وشعر بخوف مفاجئ لرؤيا الأجساد العارية المرصوصة على الأرض، كاد يقع على أحدهم فضحكوا جميعًا وقالوا في نفس واحد: اسم الله. أشار له

آخر بالجلوس بجانبه، وأفسح له مكانًا فجلس مستندًا بظهره إلى الحائط. قال له: نورت. رسم على شفتيه ابتسامة وهز رأسه. وبلا مقدمات وجد يده تتحسس جسده وجيوبه فنظر إليه مستفسرًا. زفر الآخر متحديًا: عاوز تقعد هنا ومحدش يلطشك هات خمسة جنيه. شعر بالخوف فجأة وهو ينظر إليه، كان ضخمًا وأصلع وله سمات المجرمين، كان يرتدي كلوتًا فقط، باقي جسده كان عاريًا وثدياه ضخمان ومتهدلان. أخرج من جيبه خمسة جنيهات أعطاها له من سكات، حفلات الاستقبال في الزنازين سمع عنها كثيرًا، ولو أن أحدًا صفعه على وجهه فلن يتحمل الصفعة ويموت فيها. قرفص ساقيه ووضع ذراعيه حولهما وأسند رأسه للحائط اللزج بفعل العرق وسناج الشمع الذي أحاله إلى الأسود المغبر. كانت رائحة العرق لا تطاق والساعة لم تتجاوز العاشرة مساء في ليل يولية الساخن، ولم يمض على مجيئه سوى ثلاث ساعات فقط قضاهم في حجرة المباحث. أحس بضيق في تنفسه فقام وسار حيث الحمام، أراد أن يغمر رأسه بالماء الذي يتدفق بحرية من حنفية لا تغلق، كانت مفاجأته الكبرى حيث وجد للحمام شباكًا صغيرًا وجد أحدهم يقف خلفه، وللحظة شعر أن حياته معلقة بهذا الشباك، تقدم من الواقف وقال له: تسمح لي أقف مكانك شوية. نظر إليه قليلًا قبل أن ينطق: بخمسة جنيه. لم يفكر، أخرج من جيبه وأعطاه فترك الشباك. أخذ نفسًا عميقًا فشعر بالراحة. لم يلق بالًا للماء المتدفق تحت قدميه، فقط تشعلق بحديد الشباك وأخذ يتنفس هواء حرًا وبعمق حتى الصباح.

***

كانت الزنزانة أكثر ضيقًا، فهي عبارة عن متر في متر، لكنها أكثر نظافة، لم يكن بها شباك، لكنه كان يتنفس هواءً نقيًّا آتيًا من خلال قضبان الباب الحديدي المفرغ، لم يكن بها رائحة عفونة أو عرق أو أجساد متلاصقة، لكنها كانت أكثر وحشة، يشبه صمتها صمت قبر، منذ أن جاءوا به إلى هنا وتنتابه حالة تشبه الإغماء يتوه فيها عن عالمه، تختلط في ذهنه الأزمنة والشخصيات، والأماكن، تختفي فجأة الزنزانة فيجد نفسه في البيت مع زوجته أمينة أو في المستشفى بين المرضى، تنتابه حالات هذيان فيسمع نفسه يخاطب أشخاصًا وهميين، هل كانوا حقيقيين في يوم ما؟ هل عرفهم وعاش بينهم ذات يوم؟ الغريب أنه حيث يفيق يتذكر ما حدث بالتفصيل، من بين كل هؤلاء كانت هي الأكثر سطوعًا على سطح ذاكرته، الأكثر تألقًا في سمائه، كان حضورها أخاذًا في كل هذياناته وتهويمات خياله.

حبيبتي

إنني منذ اللحظة الأولى لسماع صوتك الملائكي عبر التليفون وقعت أسيرًا لهذا الحب، تقولين هل يمكن الحب عن طريق الصوت فقط؛ وأقول إن الصوت واللغة هي الشخص نفسه فالصوت يحمل سمات المتحدث به واللغة هي الإنسان نفسه، فاللغة هي أنت، نفكر بها،ونتحدث بها، هي ثقافتنا ونشأتنا وهي الطبقة الاجتماعية التي ننتمي إليها. فيا من تقرأين قلبي الآن على الورق لا تظني أنني أكتب كتابة استهلاكية إنما هي حصيلة تفكير عميق منذ أن غادرتني، فقد استمعت لهمسك بأن أفكر عميقًا في ماهية هذه العلاقة، فعشت في عزلتي أنا أيضًا أحاول الفهم والتفسير والتبرير، وأحاول فهم نفسي، كنت أتصور أني أعرف نفسي، وها أنذا أعترف بجهلي

وتفاهتي؛ إذ كنت في الزمن الفائت؛ مثل طاووس يتيه على العالمين بريشه الملون دون أن يعرف أنه مجرد شكل خارجي زائف.

حبيبتي

هل تتصورين أنني منذ أن سافرت لم أنم دون أن أفكر بك، وأحلم بك، وأدير حوارًا طويلًا معك في كل شيء وعن أي شيء، وأنني أستدعيك بخيالاتي في كل الأوقات، حتى إنني أقمت معك حياة كاملة بكل معنى الكلمة، نغضب أنا وأنت أحيانًا، نتشاجر ونتصالح أحيانًا، أصنع لك طعامًا مما تشتهين، أصحو على صوتك وابتسامتك بجانبي على السرير، في الخيال أصبحت أكثر تجسيدًا من الواقع، وفي الخيال أعيش معك حياة كاملة ورائعة، في الليل وأنا في حجرتي وحدي، أهذي بصوت عال مخاطبًا إياكِ، أكاد أسمع نبر صوتك، ذلك الصوت الذي هو أرق من نسمة وأجمل من ملك، في بعض الأحيان أرتدي ملابسي وأخرج بحثًا عنك، تجرني قدمي لأماكن سارت فيها قدمك، أقول: هنا مشت وكنت بجانبها، وهنا وقفت وقالت كذا، أصبحت الأماكن التي رحت إليها مزارات أحج إليها كلما هاج بي الشوق إليك وأضناني الجوى، أتمثلك في كل لحظاتك، لفتاتك، طلتك، همساتك، ابتسامتك، تعابير وجهك انسجام تمايل جسدك وأنت تتبخترين، حتى نفسك؛ إذ تتنفسين، وذلك الهدوء الجميل الذي يعكسه صفاء نفس نادر، وأنا الذي بلا ذاكرة أذكر كل ما دار بيننا عبر أحاديثنا الليلية كلمة كلمة وحرفًا حرفًا وهمسه همسة وأعجب لذلك العشق السماعي، يقول بشار:

يَا قَومُ أُذْني لِبَعْضِ الحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالأُذنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العَيْنِ أَحيانا

لقد صدق بشار لذلك فقد جعلته شيخي ومعلمي في طريق العشق.

الحبيبة الغالية

طلبت مني في المرة السابقة أن أحفظ لك الحكايات، تلك التي عودتك أمك النوم عليها، وكنت وعدتك بذلك، وها أنا ذا أفي بوعدي وأقص عليك ما تيسر منها لتنامي على هدهدات صوتي فاسمعي وقري عينًا.

***

الحكاية الأولى

حكاية ست تتر
أمها الشمس
وأبوها القمر
وأخوها علي
ملك البحر

روت الرواة بألفاظ مختلفة ومعان متفقة، أن أحد الملوك العظام كان يعيش هو وزوجته في مملكته التي لم تكن تغرب عنها الشمس، وقد ظل هذا الملك ينتظر أن تضع زوجته وليًّا للعهد يرث الملك من بعده مدة طويلة حتى يئس من تحقيق أمنيته، فأشار عليه بعض وزرائه بالزواج من امرأة أخرى لعل أمنيته تتحقق على يديها، لكنه كان قد قطع عهدًا مع زوجته الملكة التي كان يحبها ألا يتزوج غيرها مهما كانت الأسباب؛ لذلك فقد فضل احترامًا للعهد، ووفاءً لزوجته أن يعيشا هكذا دون إنجاب وما قدره الله يكون.

وفي أحد الأيام، وبينما الملك نائم وقت الظهيرة، جاءه هاتف في المنام وقال له: أيها الملك، عليك بذبح خروف وديك رومي، وأرسلهما مع جاريتين إلى شاطئ البحر، يضعان الخروف في صينية على الشاطئ، أما الديك فيضعانه في قارب يجدنه هناك، ودعهما تندهان باسمي أنا علي ملك البحر.

أفاق الملك من نومه وهو يتعجب من أمر ذلك الهاتف، وقال لنفسه: أفعل ما أمرني به الهاتف، فلعل الخير يأتي على يديه. ثم إنه نده على الطباخين وأمرهم بذبح خروف وديك رومي وأرسل بهما جاريتين من أجمل جواريه، وضعت الجارية الأولى الخروف في صينية على الشط، بينما وضعت الجارية الثانية الديك في القارب، وهتفا في نفَسٍ واحد: إطلع يا علي ملك البحر، الملك أرسل إليك الهدية. وبينما هما واقفتان تنظران إذ وجدا الخروف والديك اختفيا. ووجدوا مكانهما رمانة وتفاحة، وسمعتا صوتًا آتيًا من جوف البحر: خذا هديتي إلى الملك وقولا له يأكل الرمانة وحده حبة حبة لا يترك منها شيئًا، كذلك الملكة تأكل التفاحة وحدها، وبعد ذلك تطلق مدفعك فتهدم القلعة، وسوف ترزق بنتًا سمها ست تتر، أمها الشمس وأبوها القمر، وأخوها علي ملك البحر، وتبقى أختي نصفها لك ونصفها لي. فرح الملك بما قالته الجاريتان وفعل ما أمر به علي ملك البحر ومرت تسعة شهور وجاءته البشارة بأن الملكة وضعت بنتًا تقول للشمس قومي وأنا أقعد مكانك، فرح الملك وعمل زينة وتعاليق في المملكة كلها مدة شهر، وكبرت البنت - وأولاد الحدوتة يكبرون بسرعة - وخرطها خراط البنات وصارت عروسًا بوجه يحاكي البدر ليلة أربعة عشرة في تمامه. وفي يوم من ذات الأيام خرجت المربية التي كانت تربي ست تتر تتمشى على شاطىء البحر وأخذت معها ست تتر التي ما إن رأت المياه حتى نطت من الفرح ونزلت ووضعت قدمها في الماء، وإذا بها تختفي عن عيني الجارية التي رجعت تبكي وأخبرت الملك باختفاء الأميرة، فعم الحزن المملكة وظل الملك يدور في كل المدائن، والسفن

تبحث في البحور، والأميرة فص ملح وذاب. وجلس الملك حزينًا باكيًا وقال لنفسه الله أعطى .. الله أخذ .. الله عليه العوض، من أعطى في الأول قادر على إعطائنا مرة أخرى. ولم يدر بباله أن علي ملك البحر سوف يأخذ نصفها كما شرط عليهم، وهي قد عاشت نصف حياتها على البر وجاء أوان النصف الثاني، وهكذا أخذها علي ملك البحر إلى مملكته، حيث رأت قصورًا من الذهب الخالص، وأخرى من الزمرد والياقوت المطعم بفصوص الألماظ ودخل بها قصرًا كأنه عجيبة من العجائب حوى كل ما يخطر على بال بشر من النفائس، وبينما هي تتجول بين أنحاء القصر قال لها علي ملك البحر الذي ظهر أمامها شابًّا وسيمًا عليه بهاء الملوك: أنا أخوك علي ملك البحر فلا تخافي مني وأنا نذرتك قبل مولدك أن تعيشي نصف عمرك مع أهلك والنصف الآخر معي، وأنا الذي سوف أزوجك وأفرح بخلفك. ونظر إلى ست تتر التي كانت خائفة فقال يطمئنها: لا تخافي، وعيشي معي في قصر ملكي هذا، ثم إنه أخرج من جيبه أربعين مفتاحًا بعدد حجرات القصر وناولها لها: إليك أربعون مفتاحًا تفتحين بهما كل حجرات القصر وتسعدين بما تجدينه، ولكن على شرط ألا تفتحي الحجرة رقم أربعين. ثم تركها ومشى من أمامها، وجلست تفكر فيما تفعله في هذا القصر الخاوي إلا منها، ولم تجد ما تسلي به نفسها إلا فتح الحجرات علها تجد ما يشغل بالها، وبدأت بالحجرة الأولى التي كانت ملآنة بفساتين من جميع الألوان وكلها معمولة من خيوط الذهب المطعم بفصوص اللولي والزمرد، وفي الحجرة الثانية وجدت تحفًا لم تقع عيناها على مثلها من قبل، وفي الثالثة والرابعة والخامسة وجميع الحجرات حتى أتت عليها

كلها، وفي كل مرة كانت تجد شيئًا مختلفًا، ولم تتبق أمامها سوى الحجرة الأربعين، التي حذرها علي ملك البحر من فتحها، لكنها قالت لنفسها: ولماذا حذرني من فتحها، لابد أن يكون ما بها أعجب مما رأيت حتى الآن، ثم إنها فتحتها ودخلت فلم تجد شيئًا، ولمحت شباكًا عاليًا فصعدت حتى وصلت إليه فرأته يطل على الحديقة، ورأت نعامة واقفة تحت الشباك فأشارت إليها بيدها، قالت النعامة وهي تلتفت ناحيتها: صباح الخير يا أخت علي ملك البحر. ردت ست تتر: صباح الخير يا نعامة السلطان. أكملت النعامة: لو تعرفين أن علي ملك البحر جاء بك إلى هنا ويطعمك ويسقيك ثم بعد ذلك يأكلك. لم ترد ست تتر، وحزنت جدًّا بعد أن سمعت حديث النعامة، فتركتها وأغلقت الحجرة، وحين دخل عليها علي ملك البحر ووجد آثار البكاء على وجهها قال لها: أنت فتحت الحجرة؟ هزت رأسها وقالت: نعم. أكمل: وطبعًا النعامة قالت لك كذا وكذا، طيب روحي لها غدًا وحين تقول لك ذلك ردي عليها قائلة: علي ملك البحر يطعمني ويسمّني لابن السلطان يتزوجني واعمل ريشك طرطور لابني، واعمل جلدك فروة لابني.

وفي الصباح حين قابلت النعامة وأسمعتها ما قاله لها علي ملك البحر فما كان من النعامة إلا أنها انتفضت حتى طيرت كل الريش الذي على جسدها فملأ الحديقة، ثم إنها أغلقت الحجرة ورجعت إلى أخيها الذي عرف ما حدث للنعامة فقال: غدًا تذهبين إليها مرة أخرى وتقولين مثل ما قلت. وفي صباح اليوم التالي قالت للنعامة: علي ملك البحر يطعمني ويسمني لابن السلطان يتزوجني، واعمل ريشك طرطور لابني، واعمل

جلدك فروة لابني، واعمل دمك في نقشي، واعمل لحمك في فرحي. ولمَّا سمعت النعامة ما قالته ست تتر انفجرت ميتة من وقتها وساعتها، وجاء علي ملك البحر إليها وقد سمع كل شيء وقال لها: اسمعي، سوف يرسل لي الآن أحد السلاطين الكبار الوفود لطلب يدك مني، فإذا رأيتهم تصنعي الجنون حتى أقول لك بعد ذلك ما تفعلينه.

وأخذ الملك يرسل الوفود في طلب يدها من أخيها علي ملك البحر وهي تتصنع الجنون أمامهم حتى يئس السلطان فذهب بنفسه لطلب يدها، وكم كانت دهشته حين وجدها أمامه عاقلة غير أنه وقع صريع جمالها وحسنها ولم يعد يقوى على فراقها، وقال لأخيها: أنا أضع أمام وزنها ذهبًا وكل ما تطلب من مال أحضره إليك في عاجل الحال، فقط زوجني أختك ست الحسن والجمال التي لم أعد أصبر على فراقها، قال علي ملك البحر: وأنا قبلت زواجك منها، وقبل أن تذهب إلى مملكتك تكون عندك في قصرها الذي أعمله هدية زواجكما. وبالفعل ما إن وصل السلطان إلى حدود سلطنته حتى وجد قصرًا لم يكن موجودًا من قبل في تلك الناحية، والقصر كأنه كوكب دريٌّ يضيء في الليل من غير إنارة من كثرة ثُريَّاته ولآلئه، أما داخل القصر، فكان أعجب من كل ذلك، فالباب يتكلم بكل لسان، كذا السلم والأعتاب وكل ما فيه ناطق ومتحرك غير ساكن، فالحلل تطبخ وحدها، الفرن يُحمى وحده، الخبز يجهز وحده، باختصار فكل شيء يعمل وحده على أكمل وجه وبلا تعب أو توجيه، وقال علي ملك البحر لأخته: كل ما تطلبينه تجدينه في هذا القصر، فإذا طلبت البحر تجدينه تحت شرفتك، وإذا طلبت السمك يخرج لك من البحر، إنما على شرط

إذا دخل عليك السلطان لا تتحدثي معه، فإن قال لك: يا ست حدثيني، يا ست كلميني، يا ست ردي علي. فلا تردي عليه إلا إذا قال لك: يا ست تتر يا ست تتر، ياللي أمك الشمس وأبوك القمر، وحياة أخوك علي ملك البحر تكلميني، قلبي عليكِ انفطر، إن سمعتك تتحدثين إليه قبل أن يقول لك ذلك فلن يعرف الطير الأزرق مكانك.

صبح الصباح، وأضاء الكريم بنوره ولاح، وأرادت زوجة السلطان الأولى زيارة ضرتها الخرساء التي شاع أمرها في أنحاء السلطنة، فأخذت أمها وذهبت إلى هناك فوجدت السلم بيسلم عليها، والعتبة تقول مرحبًا بزوجة السلطان، ووجدت كل شيء حولها ينطق بآيات الترحيب حتى صعدت إلى الدور العلوي هي وأمها، فوجدت ست تتر جالسة كما تجلس الشمس على عرش السماء، قامت سلمت عليهما وأجلستهما بجانبها. فتعجبتا من حديثها هي التي كانتا تظنان أنها خرساء، ثم إنهما قدمتا عقد ألماظ هدية لها فما كان من ست تتر إلا أنها أخذته ونادت على الهون فجاء إليها يدقدق فقالت له خذ هذا العقد دقدقه وارمه للفراخ ففعل بينما تنظران إلى ما حدث بغيظ، وما زاد غيظهما أكثر أنها ندهت على البحر فطلع حتى مس حافة الشرفة، وأمرت السمك بالخروج من الماء فخرج ونظف نفسه وملأ الطواجن التي دخلت الفرن حتى استوت وامتلأت السفرة بالطعام دون أن تضع ست تتر يدها في شيء حتى انتهين من الطعام فجاء الإبريق والطشت وغسلا أيديهن وسلمتا عليها ومشتا، وما إن وصلت زوجة الملك الأولى إلى قصرها حتى أرادت تقليد ست تتر فندهت على البحر فلم يطلع لها ولا السمك طلع كذلك، فأرسلت الجارية تشتري سمكًا ووضعته في

الطواجن وأدخلتها الفرن وبعد مدة أرادت أن تخرج الطواجن فدخلت الفرن كما دخلت ست تتر فاشتعلت النار في جسدها وماتت.

عرف السلطان بموت زوجته الأولى فذهب إلى ست تتر وأخذ يحدثها: يا ست كلميني .. يا ست حدثيني، زوجتي الأولى ماتت بعد أن جاءت إليكِ، وإذا لم تنطقي سوف أذهب إلى زوجتي الثانية. لكنها لم ترد عليه.

وفي الصباح أخذت زوجته الثانية أمها وذهبت لزيارة ست تتر، وكما حدث مع الأولى حدث معها حتى جاء ميعاد الغداء فأخذت الحلل تطبخ وحدها. ومدت ست تتر شعرها في الطعام تتذوقه حتى تذوقت كل الطعام وجلسن يأكلن وزوجة الملك وأمها تتعجبان، حتى ذهبت إلى قصرها وأرادت تقليد ست تتر وهمت بوضع شعرها في الطعام فاشتعلت النيران فيها وماتت.

وجاء الدور على الزوجة الثالثة فذهبت لزيارة ست تتر هي أيضًا، وما إن انتهين من الطعام حتى قالت هيا نذهب إلى الجنينة لعمل تمارين ما بعد الغداء، ووقفت زوجة الملك تتفرج على ست تتر وهي تلعب على الحبل وتنط على قرون الثور وتتمرغ فوقه حتى تعجبت من ذلك، وأرادت أن تفعل مثلها فدخلت قرون الثور في بطنها وماتت.

وحدث أن الإبريق الفخار والإبريق النحاس ذهبا إلى البحر ليمتلئا بالماء فمشيا ممتلئين بينما كان السلطان يمشي خلفهما فلم يرياه، ونطح الإبريق النحاس زميله فكسره، بكى الإبريق الفخار، وقال له سوف أشكوك لستي. لكن الإبريق النحاس قال له: اسمع يا عبيط، هل تعرف

لماذا لم تكلم ست تتر السلطان حتى الآن؟ رد عليه: ومن أين لي بمعرفة ذلك الأمر. قال: لقد سمعت علي ملك البحر يقول لها لا تتحدثي إليه حتى يقول لكِ: يا ست تتر يا ست تتر، يا للي أمك الشمس وأبوك القمر، وحياة أخوك علي ملك البحر قلبي عليك انفطر، فأنت إذا قلت لها تلك الكلمات تعفو عنك. وسمع الملك حديثهما من أوله لآخره، وفي المساء دخل عليها فوجدها كالشمس من شدة الحسن والجمال وقد ارتدت قميصًا حريريًّا شف عن مفاتن جسدها ولم يمهلها حتى نطق بما سمعه فما كان منها إلا أن ارتمت في حضنه وظلت تحدثه حتى دخل عليها فوجدها درة ما ثقبت، ومطية لغيره ما ركبت وعاشا في تبات ونبات وأنجبا صبيانا وبناتا حتى أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات سبحان الحي الذي لا يموت، صاحب الملك والملكوت.

***

كان هذيانه المستمر يأخذه من واقع زنزانته الضيقة الكئيبة كان قادرًا في كل لحظة على إدارة تهاويم خياله كيفما شاء، وكان قادرًا على استدعاء أيٍّ من نسائه في أية لحظة، غادة، أمينة، زوزو، عفاف، سارة، نادين، أما سلوى فكانت امرأة من نسيج خاص، لعلها المرأة الوحيدة التي أحبها بعد أمه، وربما كان صحيحًا أيضًا أنها المرأة الوحيدة التي جرى وراءها وهو المطارد دومًا. مسلوب الإرادة دائمًا تجاههن، وهن اللاتي كن يتصيدنه دون إرادته، ودومًا كان يتمنى أن يقيم علاقة صحيحة، علاقة يكون هو الطرف الفاعل فيها، أن يحب لا أن يُحب وأن يجري وراء من يحبها، تتمنع عليه ويبذل جهدًا حتى ينال قلبها، سلوى فعلت به ذلك، أشعلت قلبه من النظرة الأولى، الأصح أنها أصابته في مقتل منذ أن سمع نبر صوتها عبر

التليفون، وكان يحب دائمًا أن يقول لها صوتك أرق من نسمة، وأجمل من صوت مَلَك، يستشهد دائمًا ببيت بشار بن برد:

والأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العَينِ أَحيانا

أحبها على السماع، ملأت عليه حياته لمجرد أن سمع صوتها، وحين رآها لأول مرة قال لها سوف أطاردك حتى أقاصي العالم، وأقسم على ذلك، وكان قدره أن يطاردها، كانت تتمنع، وكان يوغل في مطاردتها، يلح، في إحدى رسائله وبعد أن رحلت، حاول أن يفسر اسمها قال أنت المنى والسلوى، وأنت السلو وكل ما سلاك، والسلوان هو ماء كانوا يزعمون أن العاشق إذا شربه سلا عن حبه، والسلوانة هي خرزة كانوا يزعمون أنه إذا صب عليها ماء المطر وشربها العاشق سلا معشوقته، والسلوة كل ما يُسلِّي، ويقال سقتني سلوة أي طيبت نفسي. وقال ها أنت ترين اسمك مقرونًا بالعشق فلا فكاك مني.

في أحد أيام شهر يوليه، الشهر الذي ولدا فيه معًا، كانت الساعة قد تجازوت الرابعة صباحًا حين اتصلت به وجاءه صوتها عبر التليفون: أنا مسافرة بعد ساعتين وأردت وداعك، سوف أتصل بك وأراسلك. وسافرت، هجرته، لم تتصل به ولم تراسله، وظل هو يرسل خطابات إلى المجهول، لم ترد على أي منها، كانت رسائله إليها منتظمة، وكان يبثها لواعج شوقه وحبه، كان يقارن بين ثلج لندن حيث سافرت، وحيث تعمل، وبين حي بولاق الدكرور، في بعض الأحيان يشعر بجرح في كبريائه فيقرر عدم الإلحاح، لن يكتب إليها مرة أخرى، لكن هذيانه المستمر يجعله يكتب

إليها عدة خطابات في المرة الواحدة، واحد يبثها فيه شوقه وحبه، وآخر يحدثها فيه عن أحواله ومدى ما يكابده في بعدها عنه، وثالث يحدثها عن بولاق الدكرور بعد رحيلها، ورابع يهددها فيه إن هي لم ترد على خطاباته فسوف يسافر إليها، وسوف تفاجأ به عندها. كان أشبه بالمجنون حتى إنه أطلق على نفسه مجنون سلوى.

كتب لها في إحدى رسائله:

إنني على الرغم من صعوبة حكايتي، وعلى الرغم من الانزعاج والشك واليأس الذي يصل في بعض الأحيان إلى حالة إحباط كاملة من جدوى حب لآخر ربما كان بعيدًا كل البعد عن هذياني، وعلى الرغم من الشوق للخلاص من هذه الحالة المرضية بأي صورة كانت، فأنا لا أكف عن التأكيد لنفسي أن الحب قيمة في حد ذاته، أصغي إلى كل الحجج التي تستعملها شتى الأنظمة لتبديد هذا الوهم، لحصر الحب ومحوه، يعني باختصار للتقليل من قيمة الحب، ومع ذلك أتشبث وأقول إنني أعرف الأمر، وأرجع التقليل من قيمة الحب إلى نوع الأخلاق الظلامية أو إلى واقعية هزلية، وأواجه في المقابل بحقيقة قيمة الحب مؤكدًا ما يساويه الحب في ذاته، هذا التشبث هو احتجاج العشق ينبعث من بين مجموع الأسباب الموجبة لحب مختلف، لحب أفضل، لحب دون مقابل، صوت عنيد يتمادى، هو صوت العاشق.

وهذا المعنى تحديدًا هو ما يجعلني أقوم خلسة بأعمال جنونية وأكون الشاهد الوحيد على جنوني، يستنهض الحب طاقتي، إن كل ما أقوم

به له معنى، طقوسي الخاصة والسرية، عاداتي اليومية، حديثي مع نفسي، اختياري لألوان ملابسي، حتى طعامي الذي أتناوله، نجاحاتي وإحباطاتي، كل ذلك يكون موجها لك وحدك، وتكونين أنتِ الشاهدة الوحيدة على أسراري التي لا أبوح بها لأي مخلوق سواك.

ملحوظة: أهديكِ طي هذه الرسالة إحدى حكاياتي علها تعجبك.

***

فرط الرمان

كان هناك ملك؛ ولا ملك إلا الله، ليس عنده من الأولاد سوى بنت واحدة، وكانت سبحان من صور؛ ذات جمال نادر الوجود، وحين سمع الملوك وأولاد الملوك بجمالها جاءوا لخطبتها من كل بلاد العالم، وكانت كلما تزوجها أحدهم وحين يدخل عليها تقول له خليك عندك. يقول لها: لماذا؟! فترد عليه وهي نائمة على السرير: لقاط بن لقاط.. ألقط الرمان من على البساط. فيظل طوال الليل يلتقط حب الرمان من على البساط دون أن يفلح في الانتهاء من التقاط كل الحب المفروط، عندئذ تنده على المشاعلي ليأخذه فيطير رقبته، وظلت على هذه الحالة كل من تزوجها تطير رقبته حتى طيرت رقبة أربعين واحدًا إلا واحدًا. وسمع ملك من الملوك حكاية تلك البنت الجميلة التي تقتل خطابها فطمع في الزواج منها، وحمّل السفن من خير بلده وركب قاصدًا إليها بلاد تشيله وبلاد تحطه لحد ما وصل للمملكة التي فيها البنت، وتقدم لخطبتها من أبيها لما شاف جمالها وكمالها وقال لنفسه: حتى لو قتلت في سبيل هذا الجمال النادر فلا يهم. وانكتب الكتاب وأقيمت الأفراح أربعين ليلة إلا ليلة، وفي الليلة الأربعين أراد الملك الدخول على عروسته، فقالت له: لقاط ابن لقاط.. ألقط الرمان

من على البساط. فقال لها بسيطة يا نور العين، وشرع من فوره في التقاط الرمان بسرعة وقوة حتى إنه لم يبق حبة واحدة إلا والتقطها. فلما رأت ذلك نادت للمشاعلي ليأخذه يقطع رقبته مثلما فعل مع الآخرين. فقال لها الملك: ولماذا يقطع رقبتي؟ أنت أمرت بلم حب الرمان كله وأنا نفذت أمرك ولم أترك حبة واحدة فلماذا إذن تعاقبينني، هذا لا يكون أبدًا، ثم إن الملك أخرج سيفه مهددًا المشاعلي الذي خاف وقال له: وأنا مالي يا سيدي، إنها أوامر سيدتي وأنا عليّ التنفيذ. فقال له الملك: إذن نفذ الأوامر ولكن بدلًا من قتلي اذهب بي إلى السجن وخذ هذه النقود مني لك. وفي السجن قال للسجان خذ هذه النقود وطلعني. السجان أفرج عنه، فلما خرج من السجن التقى برجل فقير يحمل طبلة وشوية عيش معفن وداير يشحت ويغني: أنا الأدباتي أحسن منك، وألم عيش أكتر منك. والأدباتي كان لابس جلابية زرقاء مهربدة قال له الملك تعالى يا رجل خذ هدومي بما فيها من نقود وأعطني الجلابية الزرقاء والطبلة والعيش المعفن. ولبس الملك ملابس الأدباتي وراح وجد الأميرة قاعدة في البلكونة فوقف تحت البلكونة وانطلق يغني: ترللّي يا ترللّي.. وإن عشت لأخلص تاري.. وإن مت فرحمة عني. سمعت الأميرة غناء الملك وظلت فرحانة طوال اليوم وتقول له: قل وغني يا ترللّي وهو يرقص ويغني. في اليوم التالي ذهب إليها ووقف تحت البلكونة فندهت عليه: إطلع غني لي فوق يا ترللّي. قال لها حاضر يا ستي، وصعد الملك إلى حجرة الأميرة وظل يغني لها: إن عشت لأخلص تاري وإن مت فرحمة عني، ترللّي يا ترللّي إلى أن قالت له نام تحت السرير يا ترللّي، فنام تحت السرير وفي الليل قام فات فيها راحت

حامل، وظل في كل يوم يغني لها لما بطنها كبرت، وهو يذهب طوال طوال النهار إلى سفينته يأكل ويشرب ويستحم ويغير هدومه وفي آخر النهار يذهب إلى الأميرة، ومرت الأيام وهو مع الأميرة حتى أهل الشهر التاسع فقال لها: وما العمل؟ ردت قائلة بطني كبرت يا ترللّي يا ميلة بختي. قال لها: لا تخافي سوف آخذك من هذا القصر. قالت: ولكن أبي الملك سوف يرانا. فقال لها: سوف أحضر لك تسع سراويل وجلباب أزرق، وألفك فيهم وأنزل عليك ضربًا وأجرجرك على الأرض أمام أبيك. قالت له طيب يا ترللّي اعمل ما بدالك، وبالفعل ألبسها السراويل والجلباب الأزرق، وظل يضرب ويجرجر فيها حتى وصلا إلى سفينته وحذرها من مغادرتها لأن والدها الملك سوف يبحث عنها ويقلب عليها المملكة، فخافت الأميرة ورجته أن يمشي بالمركب حتى تبتعد عن مملكة أبيها. إلا أنه رفض وقال لها ليس هذا وقته، ثم أحضر لها كسرة خبز وقطعة لحم وقال إنه تسول لها هذا الطعام. وحتى يزيد من خوفها قال إن الملك عرف طريقها وسوف يصل حالًا، وذهب فارتدى ملابس الملوك وغير من صوته وأخذ ينده عليها، أما هي فقد اختبأت تحت السرير وكادت تموت من الخوف، ثم إنه غير ملابسه مرة أخرى فارتدى الجلباب الأزرق ورفع على كتفه مخلاة الخبز ودخل عليها فارتمت عليه وأخذت تبكي وترتعد خوفًا وهي تستعطفه حتى يحل المركب ويرحلا بعيدًا عن مملكة أبيها. فحبسها في إحدى قمرات السفينة وارتدى ملابس الملوك مرة أخرى وأمر بسير السفن حتى وصل إلى بلده فأمر الخدم بتنظيف إسطبل الخيل وأخذها من يدها بعد أن أرتدى الجلباب الأزرق القديم وقال لها تقيمي هنا حتى تلدي وأنا

أشحت لك الطعام وملابس الطفل من عند الملك. فقالت أنت أذللتني يا ترللّي. رد عليها قائلًا ياما أذللت أولاد ملوك وأمراء وقطعت أعناقهم. فصعب عليها حالها وما أصبحت عليه فأخذت تبكي. أما هو فقد أغلق عليها باب الإسطبل وذهب إلى قصره فخلع ملابسه واستحم وأكل ونام على سريره، وفي الصباح ارتدى جلبابه وذهب إليها بطعام فقير فأكلت وشبعت وهكذا كل يوم. وانتشر الخبر في المدينة الملك زوجته عادت وسوف تلد ولي العهد فدار الفرح في كل أنحاء المدينة وعلقت الزينات، لكن الملك أراد إذلالها حتى لا تعود إلى ما كانت عليه مرة أخرى، فقال لها: الملك زوجته سوف تلد وهم يستعدون لذلك فاذهبي واسرقي بعض الملابس لطفلك الذي تلدينه، فذهبت ودخلت قصر الملك والجميع كانوا في انتظارها بأمر الملك، وأمهلوها حتى سرقت بعض الملابس. فقبضوا عليها وطردوها من القصر فذهبت إلى الإسطبل تبكي فلما رآها الملك ضحك، وقال لها: المرّة القادمة لا تدعي أحدًا يراك، وبدلًا من القماش خذي لولي وألماظ ضعيه في فمك فلا يراك أحد. قالت: حاضر يا ترللّي وذهبت سرقت اللولي والألماظ ووضعته في فمها فضربها على وجهها طار اللولي والألماظ من فمها ومن شدة الضربة ومن غيظها أخذت تبكي وتشتكي لترللّي، وفي تلك اللحظة جاءها ألم المخاض فولدت ولدًا ذكرًا فأحضر لها ملابس للطفل، وكانت هي تشعر بالجوع فطلبت منه طعامًا فجاء لها بأرز ونثره على الأرض وقال لها إلحسيه بلسانك من على البلاط. قالت: حاضر يا ترللّي. فقال: لحاسة بنت لحاسة لحستي الأرز من على البلاطة. فعرفت أنه هو الذي فعل بها كل هذا من أجل ما فعلته بخطابها.

فقالت له: تبت على يديك وأرجو أن تسامحني، فأخذها من يدها وطلع بها القصر وأمر بإقامة الزفة وتعليق الزينات وعمل الأفراح لمدة ثلاثين ليلة في كل أنحاء المملكة وعاشوا في تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات، ما رأيك؟

***

المتهم المذكور كان انشاف بين جماعة ساري عسكر من حد الجيزة وانوجد مخبي في الجنينة التي حصل فيها القتل. وفي الجنينة نفسها انوجد الخنجر الذي به انجرح ساري عسكر وبعض حوائج أيضًا بتوع المتهوم، فحالًا بدأ الفحص بحضور ساري عسكر منو الذي هو أقدم أقرانه في العسكر وتسلم في مدينة مصر. والفحص المذكور صار بواسطة الخواجا براشويش كاتم سر وترجمان ساري عسكر العام ومحرر من يد الدفتردار سارتلون الذي أحضره ساري عسكر منو لأجل ذلك المتهوم المذكور.

سُئل عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعته فجاوب بأنه يسمى سليمان ولادة بر الشام وعمره أربعة وعشرون سنة ثم صنعته كاتب عربي وكانت سكنته في حلب.

سئل كم زمانًا له في مصر؟ فجاوب بأنه بقي له خمسة أشهر وأنه حضر في قافلة وشيخها يسمى سليمان بوريجي.

سئل عن ملته، فجاوب بأنه من ملة محمد، وأنه كان سابقًا سكن ثلاث سنين في مصر وثلاث سنين أخرى في مكة والمدينة.

سُئل هل يعرف الوزير الأعظم؟ وهل له مدة ما شافه؟ فجاوب بأنه ابن عرب ومثله ليس يعرف الوزير الأعظم.

سـئل عن معارفه فـي مدينة مصر، فجاوب بأنه لـم يعرف أحدًا وأكثر قعـاده فـي الجامع الأزهـر وجملة نـاس تعرفه وأكثرهم يشـهدون بمشـيه الطيب.

سـئل هل راح صباح تاريخه الجيزة؟ فجـاوب: نعم، وإنه كان قاصد ينشبك كاتب عند أحد، ولكن ما قسم له نصيب.

سئل عن الناس الذين كتب لهم أمس فجاوب بأنهم كلهم سافروا.

سـئل كيـف يمكن أنه لـم يعرف أحدًا مـن الذين كتب لهـم في الأيام الماضية؟ وكيف يكونون كلهم سـافروا؟! فجـاوب بأنه ليس يعرف الذين كان يكتب لهم وأنه غير ممكن أن يفتكر أسماءهم.

سـئل من هو الآخر فـي الذين كتب لهم؟ فجاوب بأنه يسـمى محمد مغربي السويسي بياع عرقسوس وأنه ما كتب لأحد في الجيزة.

سـئل ثانيا عن سبب روحته للجيزة، فجاوب دائمًا بأنه كان قاصدًا أن ينشبك كاتبا.

سـئل كيف مسكوه في جنينة ساري عسـكر؟ فجاوب بأنه ما انمسك فـي الجنينـة بل في عارض الطريق فـذاك الوقت انقال له أنـه ما ينجيك إلا الصحيـح؛ لأن عسـكر الملازميـن مسـكوه في الجنينـة وفي المحـل ذاته انوجدت السكينة وفي الوقت انعرضت عليه، فجاوب صحيح بأنه كان في الجنينة ولكن ما كان مسـتخبي بل قاعد؛ لأن الخيالة كانت ماسـكة الطرق وما كان يقدر أن يروح للمدينة وإن كان عنده سكينة ولم يعرف إن كان هذا موجود في الجنينة.

سـئل لأي سبب كان تابع ساري عسكر من الصبح؟ فجاوب بأنه كان مراده فقط يشوفه.

سئل هل يعرف حتة قماش خضرة التي باينة مقطوعة من لبسه وكانت انوجدت في المحل الذي انغدر فيه ساري عسكر؟ فجاوب بأن هذه ما هي تعلقه.

سـئل إن كان تحـدث مع أحد في الجيزة وفـي أي محل نام؛ فجاوب بأنـه مـا تكلم مع ناس إلا لأجل مشـتري بعض مصالح وأنـه نام في الجيزة فـي جامع، فأشـاروا له علـى جروحاته التي ظاهـرة في دماغـه وقيل له إن هذه الجروحات بينت أنه هو الذي غدر سـاري عسـكر؛ لأن أيضًا الستوين بروتاين الذي كان معه عرفه وضربه كم عصاية التي جرحته فجاوب بأنه ما انجرح إلا ساعة ما مسكوه.

سـئل هل كان تحدث نهار تاريخه مع حسـين كاشـف أو مع مماليكه فجاوب بأنه ما شافهم ولا كلمهم، فلما كان المتهوم لم يصدَّق في جواباته أمر سـاري عسـكر بأنهم يضربونه حكم عوائد البـلاد، فحالًا انضرب لحد أنـه طلب العفـو، ووعد بأنه يقر بالصحيح فارتفع عنـه الضرب وانفكت له سواعده وصار يحكي من أول وجديد كما هو مشروح.

سـئل كم يومًا له في مدينة مصر؟ فجاوب بأن له واحدًا وثلاثين يومًا وأنه حضر من غزة في ستة أيام على هجين.

سئل لأي سبب حضر من غزة؟ فجاوب لأجل أن يقتل ساري عسكر العام.

سـئل من الذي أرسـله لأجل أن يفعل هذا الأمر؟ فجاوب بأنه أرسل من طرف أغات الينكجرية وأنه حين رجع عساكر العثملي من مصر إلى بر الشـام أرسلوا إلى حلب بطلب شخص يكون قادرًا على قتل ساري عسكر العـام الفرنسـاوي، ووعـدا لـكل من يقـدر عن هـذه المـادة أن يقدموه في الوجاقات ويعطوه دراهم ولأجل ذلك هو تقدم وعرض روحه لهذا.

سُـئل مـن هم الناس الذيـن تصدروا له فـي هذه المادة فـي بر مصر؟ وهل سـار واحـد على نيته؟ فجاوب بـأن ما أحد تصدر له وأنه راح سـكن في الجامع الأزهر، وهناك شـاف السيد محمد الغزي والسيد أحمد الوالي والشـيخ عبـد الله الغزي والسـيد عبد القـادر الغزي السـاكنين في الجامع المذكـور فبلغهم على مراده فهم أشـاروا عليه أن يرجع عن ذلك؛ لأنه غير ممكن أن يطلع من يده ويموت فرط، وإن كان لازم يشـخصوا واحدًا غيره فـي قضـاء هذه المادة، ثم إنه كل يوم يتكلم معهم في الشـغل المذكور وإن أمـس تاريخـه قال لهم إنه رايح يقضي مقصوده ويقتل سـاري عسـكر وإنه توجـه إلى الجيزة حتى ينظـر إن كان يطلع من يده، وإن هنـاك قابل النواتية بتوع قنجة ساري عسكر فاستخبر عليه منهم إن كان يخرج برًّا فسألوه إيش طالـب منـه؟ فقال لهم: إن مقصوده يتحدث معه فقالـوا له إنه كل ليلة ينزل فـي جنينته ثم صباح تاريخه شـاف سـاري عسـكر معديًا للمقيـاس وبعده ماشي إلى المدينة فتبعه لحين ما غدره.

هذا الفحص صار من حضرة ساري عسكر منو بحضور باقي سواري العساكر الكبار وملازمين بيت ساري عسكر العام ثم انختم بإمضاء ساري منو والدفتردار سـارتلون في اليوم والشـهر والسـنة المحررة أعلاه ثم انقرأ

على المتهوم وهو أيضًا خط يده واسمه بالعربي سليمان، إمضاء ساري عسكر عبد الله منو إمضاء ساري عسكر داماس، إمضاء الجنرال والتين، إمضاء الجنرال موراندا، إمضاء الجنرال مارتينه، إمضاء دفتردار البحر لروا، إمضاء الدفتردار سارتلون، إمضاء الترجمان لوماكا، إمضاء الترجمان حنا روكه، إمضاء داميانوس براشويش كاتم السر وترجمان ساري عسكر العام.

***

سئل خالد هل هو مذنب أم غير مذنب، وكان جوابه: نعم لقد قتلته، ولكني غير مذنب، لقد فعلت ما فعلت في سبيل الدين وفي سبيل الوطن.

وسئلوا جميعًا عمن اختاروهم للدفاع عنهم من المحامين وكان جوابهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

وسئل محمد عبد السلام فرج ما الذي كانوا يطمحون من تحقيقه باغتيال الرئيس، فأجاب: ليكون تحذيرًا لكل من يجيء بعده وليتعلموا منه درسًا لقد كان هدفنا في هذه المرحلة من النضال أن نردع كل الحكام المقبلين.

وسئل عباس محمد بطل الرماية القديم في الجيش أن يدلي بشهادته كان قوله حتى قبل أن يطلبوا إليّ الاشتراك معهم في قتل السادات كنت وصلت إلى اقتناع كامل بأن هذا لرجل يجب أن يقتل، وكنت أدعو الله أن يعطيني شرف الاشتراك في إرغام الطاغية على أن يدفع ثمن جرائمه.

وسُئل هل يشعر بكراهية خاصة تجاه الرئيس؟ فأجاب: لا، لم تكن لدي كراهية خاصة تجاهه، وإنما أنا مسلم يؤدي الصلاة وما يهمني هو الإسلام فقط.

وسئل عطا طايل عن دوره فأجاب: لقد تقدمت من المنصة، وكنت آخر من وصل إليها من الإخوة ولم أر السادات أمامي، ولكني رأيت صفًّا، من المقاعد الخالية ثم أصابتني رصاصة من واحد كان يطلق النار في اتجاهنا، وأظنه كان يجلس في الصف الخامس ولم أبادله إطلاق النار مع أنه كان في مرمى نيراني لقد كنا نريد السادات وحده لكي نجعل منه عبرة لمن يأتي بعده.

وسئل عباس محمد - ثانية - عما إذا لم يكونوا يقدرون أن هناك أبرياء سوف يصابون إلى جانب الرئيس أثناء عملية إطلاق النار، فأجاب: نعم لقد كان مثل هذا الاحتمال واردًا، وكنا مستعدين لإطلاق النار على أي شخص يعترض طريق وصولنا إلى الطاغية.

***

في الساعة الثامنة بعد الظهر حضر في منزل ساري عسكر العام منو أمير الجيوش الفرنساوية والسيد عبد الله الغزي، ومحمد الغزي، والسيد أحمد الوالي، وهم الثلاثة متهومون في قتل ساري عسكر العام كلهبر، فأمر ساري عسكر منو بفحصهم فبدئ ذلك حالًا في حضور بعض سواري العساكر المجتمعين لذلك وبواسطة الستوين لوماكا الترجمان كما يذكر أدناه السيد عبد الله الغزي هو الذي سئل أولًا لوحده.

سئل عن اسمه وعن سكنه وصنعته، فجاوب بأنه يسمى السيد عبد الله الغزي، ولادة غزة، ومسكنه في مصر في الجامع الأزهر، وهناك كان كارُه مقرئ القرآن، وأنه لم يعرف كم عمره ولكن تخمينه يجيء ثلاثين سنة.

سئل إن كانت سكنته في الجامع الأزهر؟ وهل يعرف جميع الغرباء الذين يدخلونه فجاوب بأنه ساكن ليل ونهار ويعرف الغرباء الذين فيه.

سئل هل يعرف رجلًا حضر من بر الشام من مدة شهر؟ فجاوب بأنه من مدة خمسين يومًا ما شاف أحدًا حضر من بر الشام، فقيل له: إن رجلا من طرف عرض الوزير حضر من مدة ثلاثين يومًا، قال: إنه يعرفك، والظاهر أنك لم تتكلم بالصدق. فجاوب بأنه ملهي دائمًا في وظيفته وأنه ما شاف أحدًا من بر الشام، بل وسمع أن قافلة كانت وصلت من ناحية الشرق فقيل له أيضًا: إن ناسًا حضروا من بر الشام يقولون إنهم تكلموا معه ويعرفونه، فجاوب بأن هذا غير ممكن وأنهم يقابلونه مع الذي فتن عليه.

سئل هل يعرف واحدًا اسمه سليمان كاتب عربي حضر من حلب من مدة ثلاثين يومًا؟ فجاوب: لا. فقيل له إن هذا الرجل يحقق بأنه شافه وأخبره ببعض أشياء لازمة، فجاوب: بأنه ما شافه وأن هذا الرجل كذاب، وأنه يريد أن يموت إن كان ما يحكى الصحيح، فأحال ساري عسكر خبره إلى محمد الغزي الذي هو أيضًا متهوم في قتل ساري عسكر وبدئ الفحص كما يذكر:

سُئل عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعته فجاوب بأنه يسمى الشيخ محمد الغزي وعمره نحو خمس وعشرين سنة ولادة غزة، ويسكن بمصر في الجامع الأزهر ثم صنعته مقرئ القرآن من مدة خمس سنين، وما يخرج من الجامع إلا لكي يشتري ما يأكل.

سئل هل يعرف الغرباء الذين يجيئون يسكنون في الجامع؟ فجاوب بأن في بعض الأوقات يحضر ناس غرباء وأما البواب فهو الذي يقارشهم ومن قبله ينام بعض ليال في الجامع، والبعض في بيت الشيخ الشرقاوي.

سئل هل يعرف رجلًا يسمى سليمان حضر من بر الشام من مدة ثلاثين يومًا؟ فجاوب بأنه لم يعرفه، وأنه غير ممكن أن يشوف كل الناس لأن الجامع كبير قوي.

سئل أنه يحكي على الذي تكلم به معه سليمان فإن المذكور يحقق بأنه تكلم معه في الجامع، فجاوب بأنه يعرفه من مدة ثلاث سنين وأنه كان عنده خبر إنه راح مكة وأما من بعد ما شافه ولم يعرف إن كان رجع أم لا.

سئل هل السيد عبد الله الغزي يعرفه أيضًا؟ فجاوب: نعم. فقيل له محقق بأن أمس تاريخه سليمان المذكور تحدث معه حصة طيبة وأن الشواهد موجودة فجاوب بأن هذا صحيح.

سئل لأي سبب كان بدأ يقول إنه ما شافه فجاوب: إن تخمينه ما قال هذا وإن المترجمين غلطوا.

سُئل: هل سليمان المذكور ما بلغه عن شيء مذنب قوي وتحقيقًا لذلك معلوم عندنا أنه كان قصده يحوشه، فجاوب إنه لم يعرف هذا الأمر

وإن سليمان المذكور راح وجاء كام مرة إلى مصر، وبقي له هنا مقدار شهر. فقيل له: إنه موجود شواهد إن سليمان المذكور كان أخبره أن مراده أن يغدر ساري عسكر العام، وأنه أراد أم يمنعه فجاوب بأنه ما بلغه عن هذا الأمر بل أمس تاريخه قال له إنه رايح ويمكن إن ما بقي يرجع فبعده أحضرنا عبد الله الغزي لأجل يتفحص ثانيًا كما ذكر أدناه.

سُئل لأي سبب قال إنه لم يعرف سليمان الحلبي حين سألوه عنه بحيث إنه موجودة شواهد أن هذا له في مصر واحد وثلاثون يومًا وأنه تقابل وإياه جملة مرار وتحدث معه أكثر الأيام فجاوب حقًّا أنه لم يعرفه.

سُئل: هل يعرف واحدًا يسمى محمد الغزي الذي هو مثله مقرئ القرآن في الجامع الأزهر؟ فجاوب: نعم.

سئل السيد عبد الله المذكور لأي سبب أنكر ذلك؟ فجاوب أنهم لخبطوا عليه السؤال، وأن هذا الوقت بحيث إنهم سألوه عن سليمان الذي من حلب فيقر بأنه يعرفه، فقيل له: إنه معلوم عندنا أنه شافه مرارًا كثيرة، وتحدث معه فجاوب بأنه بقي له ثلاثة أيام ما شافه.

سُئل هل إنه ما قصد يمنعه عن القتل الذي فعله لساري عسكر العام؟ فجاوب: إنه ما قال له أبدًا على هذا الأمر وإنه لو كان بلغه منه ذلك كان منعه بكل قدرته.

سئل لأي سبب ما يحكي الصحيح بحيث إنه موجودة عليه شواهد فجاوب بأنه غير ممكن يوجد عليه شواهد وأنه ما شاف سليمان المذكور إلا لأجل أن يسلموا على بعض حين تقابلوا.

سُئل: هل سليمان ما أخبره أبدًا عن سبب مجيئه إلى مصر؟ فجاوب: حاشا. فبعد ذلك أخروا الاثنين المذكورين وأحضروا السيد الوالي الذي هو متهوم.

سئل عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعته، فجاوب بأنه يسمى السيد أحمد الوالي، ولادة غزة، وصنعته مقرئ القرآن في الجامع الأزهر من مدة عشر سنين ولم يعرف كم عمره.

سئل هل يعرف الغرباء الذين يدخلون في الجامع فجاوب بأن وظيفته يقرأ ولا ينتبه إلى الغرباء. فقيل له: إن بعض الغرباء الذين حضروا هناك عن قريب يقولون إنهم شافوه في الجامع فجاوب أنه ما شاف أحدًا.

سئل هل شاف رجلًا حضر من بر الشام من طرف الوزير وهذا الرجل قال إنه يعرفه. فجاوب: لا: وإن كان يقدروا يحضروا هذا الرجل حتى يقابله.

سُئل: هل يعرف سليمان الحلبي فجاوب: بأنه يعرف واحدًا يسمى سليمان الذي كان يروح يقرأ عند واحد أفندي وكان طالب إنه يستقيم في الجامع، وإن هذا الرجل قال إنه من حلب، ومن مدة عشرين يومًا شافه وبعدها ما قابله ثم كان قال له: إن الوزير في يافا وإن عساكره ما كان عندهم دراهم وكانوا يقوتونه.

سئل: هل هذا الرجل المذكور ما هو تحت حمايته؟ فجاوب إنه لم يعرفه طيبًا حتى يضمنه.

سُـئل هل الاثنان الآخران المتهومان معارفه؟ وهل أن الثلاثة تحدثوا سـواء عن قريب أم أمس تاريخه مع سليمان المذكور؟ فجاوب: لا، بل إنه يعرف أن سليمان المذكور كان حضر لزيارة الجامع، وأنه وضع في الجامع جملة أوراق مضمونها أنه كان قوي متعبدًا لخالقه.

سُـئل: هل المذكور أمـس أيضًا ما وضع أوراقًا فـي الجامع القريب؟ فجاوب إن ما عنده خبر بذلك.

سـئل هـل ما منع سـليمان عن فعل ذنب بليغ؟ فجـاوب: إنه أبدًا ما حدثه بهذا الشـيء، ولكن قال له إن مراده يفعل شـيئًا مجنونًا وإنه عمل كل جهده حتى يرجعه.

سـئل إيش هو الجنـان الذي قاصد يعمله وحدثـه عليه؟ فجاوب: إنه قال له إنه كان مراده يغازي في سـبيل الله، وإن هذه المغازاة هي قتل واحد نصراني، ولكن ما أخبره باسـمه وإنه قصـد يمنعه بقوله إن ربنا أعطى القوة للفرنساوية ما أحد يقدر يمنعهم حكم البلاد.

***

من محاكمة إلى أخرى

يا قلبي ...

فرغـوا مـن التحقيق معه هو والآخرين، اسـتمر التحقيـق أيامًا عديدة لا يـدري عددهـا، وكان كل مـن حولـه يبشـرونه بقـرب الإفـراج عنـه، فالتحقيقـات كلها تشـير إلى أنه ليس له دخلٌ بما حـدث ، كانت كل أقواله وأقوال الآخرين تشـير إلى ذلك، لم يكن سـوى عسـكري مراسـلة لخالد، ولا يعرف شـيئًا عما كان ينتويه هـو ومجموعته، واقترب موعد المحاكمة، لم يكن متوترًا أو يشـعر بخوف، في الأيام الأخيرة تسـاوى عنده كل شيء، الإدانـة مثلهـا مثل البراءة؛ فلا شـيء يهـم الآن، كله محصـل بعضه، بل إنه وفي لحظة من لحظات شـروداته تمنى أن يكون فردًا منهم، وأن يفعل مثل مـا فعلـوا، أن يكون لديه قضية يعطي حياته ثمنًا لها، لا أن يظل طوال حياته هاربًا من كل شيء، حتى من نفسه. تذكر زوجته، أين هي الآن؟ لقد نشرت صورهـم جميعًا فـي الجرائد، ولابد أنها قد عرفت أين هـو الآن، لكنها لم تكلف نفسـها بالبحث عنه، أكثر من خمس سـنوات لم يرها، كانت حاملًا حين تركها، فإذا كانت قد وضعت بسـلام فسـوف يكون لديه طفلٌ أو طفلة

عمرهما خمس سنوات الآن، حتى أخوه الوحيد لم يسأل عنه، تركه وحده لمصيره. كور قبضته ودفعها في الحائط الأسمنت بغضب، وشعر بألم حاد يجتاح كل جسده، لكنه شعر أيضًا براحة عجيبة، وهز رأسه متمتمًا: واجه مصيرك بشجاعة وقوة، لمرة واحدة فقط.

***

كانت التهم الموجهة إليه هي التآمر على قلب نظام الحكم، والضلوع في تنظيم سري الغرض منه إشاعة البلبلة والفوضى في البلاد، والاشتراك في قتل رئيس الجمهورية، وبحسبة بسيطة فقد كان منتظرًا ثلاثة أو أربعة أحكام بالإعدام، لكنه خرج براءة من كل ذلك، وعلى الرغم من فرحه الحقيقي لحظة النطق بالحكم، إلا أنه كان يشعر في قرارة نفسه بالحزن العميق على خالد ورفاقه الذين تلقوا الحكم بإعدامهم رميًا بالرصاص بهدوء شديد. كان خالد الواقف خلف القضبان يرتدي جلبابًا أبيض نظيفًا وشالًا أبيض، وكانت لحيته التي طالت في الحبس قد زادته بهاءً، لحظة النطق بالحكم تطلع إلى وجهه فالتقت العيون ولمح ابتسامة على وجه خالد لم ير أجمل منها طوال حياته، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي سوف يرى فيها خالدًا ورفاقه. فقد تم ترحيله، في اليوم التالي إلى سجن الكتيبة انتظارًا لإجراءات محاكمة أخرى عن هروبه من الجيش. كانت الكتيبة قد تغيرت كلية، فقد حوكم كل من قائد اللواء وقادة الكتائب والسرايا بتهم الإهمال وتسهيل مهمة خالد وتم استبدالهم بآخرين جدد، وربما كان هو الوحيد الأقدم في الكتيبة. وكانت إجراءات محاكمته هذه المرة أشد صرامة من المرة السابقة، فكان يذهب إلى المحكمة والقيود في يديه، ومعه ثلاثة حراس بالسلاح لا يتركونه لحظة واحدة لاستكمال

أوراق محاكمته، وبعد الظهر. يرجع إلى سجن الكتيبة وهو عبارة عن نفق طويل وعميق محفور في الرمال ومبطن بألواح الصاج والسلك المخرم ويقع في منتصف أرض الكتيبة، حوله سور من السلك الشائك وجندي واحد خدمة لحراسة السجن يستبدل كل ثماني ساعات، كان أكثر ما يضايقه هو شدة الحرارة المنبعثة من الرمال وألواح الصاج والتي تمتص شمس يولية الحارقة منذ السابعة صباحًا حتى غروبها في السابعة مساء، كان يبل فوطته في الماء ويضعها على رأسه ووجهه ويتنفس الهواء ببطء من خلالها، على الرغم من أنه ولد في الصيف إلا أنه يكرهه، لا يطيق الحر، ويتمنى أن تصبح كل شهور السنة شتاء، ولد وتزوج في شهر يولية في عز الصيف، الأم والأب توفيا في شهر ديسمبر، في عز الشتاء. ابتسم لهذه المفارقة وتذكر أن عليه النوم مبكرًا، فسوف يذهب غدًا إلى المحكمة لتتم محاكمته، وتساءل بينه وبين نفسه: ما الذي تتوقعه؟ السجن أم البراءة؟ وكانت إجابته أن هز كتفيه قائلًا: سيان، فلا شيء يهم الآن.

في الصباح صحا مبكرًا فتناول بضع لقيمات من الفول وشرب شايًا وحلق ذقنه وارتدى أفرولًا نظيفًا واستعد للخروج، كان الجنديان المعنيان لحراسته قد جاءا فوضعا في يده القيد الحديدي، وسارت القافلة في طريقها إلى المحكمة واحد على يمينه يحمل على كتفه بندقية آلية، والآخر يحمل أوراقه في ملف منتفخ. كانت الطريق إلى المحكمة تقدر مسافته بكيلومتر قطعوها مشيًا على الأقدام في طريق رملي متعرج يمر بعدة كتائب متناثرة هنا وهناك. وصلوا قبل انعقاد جلسة المحاكمة بساعة فاختاروا ركنًا ظليلًا في ساحة المحكمة وافترشوا الأرض، أشعل سيجارة، وحملق في الجنود الجالسين يملأون الساحة بعضهم ينتظر محاكمته، الآخرون جاءوا

للحراسة، وشعر فجأة بحنين جارف إلى سلوى، زوجته أمينة لم يعد يشعر نحوها بأي شيء، سوف يطلقها فور خروجه، أما الأخرى، فسوف يذهب للبحث عنها حتى أقاصي العالم، أين زوزو الآن، هل مازالت تمارس البغاء أم أنها قُبض عليها مرة أخرى، الرائد محمد غريب وزوجته غادة، هل مازالت تخدعه وتنام مع العساكر المراسلة الذين يجلبهم لها بيده إلى البيت؟

محكمة .. صاح الحاجب، فوقف الجميع، كان هو يقف خلف القضبان الحديدية بينما جنديّا الحراسة جلسا فوق دكة خشبية في القاعة بعد أن فكا قيده، كانت القاعة الفسيحة مكتظة ودخل القاضي يرتدي ملابسه الرسمية ويعلق على كتفيه رتبة مقدم وخلفه كاتب الجلسة وعضو النيابة نائب أحكام برتبة ملازم أول. نودي على اسمه في أول الكشوف وأخرج القاضي ملفه وأخذ يتصفح الأوراق بعينيه ثم كتب بعض العبارات بالقلم الأحمر بعد أن نظر إليه ثم أقفل ملفه وأعطاه لكاتب الجلسة. استمرت الجلسة ثلاث ساعات كاملة كان القاضي يتلو الحكم في بعض القضايا بصوت علني، بينما في قضايا أخرى كان يكتفي بالكتابة. أخيرًا انفضت المحكمة فأخذه حارساه وذهبا به إلى كاتب الجلسة ليعرفا الحكم.

اسمك يا سيدي، سنة مع إيقاف التنفيذ ورفت من الخدمة، مبروك أنا عاوز الحلاوة، تقدر تروح على بيتكم. ولم يكن كلام كاتب الجلسة صحيحًا، فقد احتاج الأمر إلى شهر للتصديق على الحكم وإنهاء إجراءات خروجه من التجنيد.

***

حبيبتي

سوف أشرح لك المسألة وأكون أكثر عقلانية وتركيزًا؛ تكمن مأساتي في شيئين دائمًا ما أربط بينهما، فالموت عندي صنو السفر، ومشكلتي معك أن العاشق حاضر هنا أبدًا، بينما المعشوق هو الذي يبتعد في لحظة ما، فالغياب هو غياب الآخر فقط - أنت - الآخر هو الذي يرحل وأنا الذي أبقى، الآخر - أنت - في حالة ترحال أبدية، في سفر، هو مرصود للهجرة وللهرب والشتات، أما أنا العاشق، المرصود - بالمقابل - للسكون والثبات والترقب، فإنني أتكوم في مكاني مهملًا كرزمة في إحدى زوايا محطة ما، ينحو الغياب في العشق في اتجاه واحد فقط، ولا يمكنه أن يفهم إلا من خلال الذي يبقى وليس من خلال المسافر.

أتمكن أحيانًا من تحمل هذا الغياب، وأكون حينئذ شخصًا طبيعيًّا، أي أنني أجاري الطريقة التي يتحمل بها الجميع سفر شخص عزيز، وأخضع بجدارة للترويض الذي تلقنته باكرًا والذي تمثل بمفارقتي لأمي، وهذا لا يمنع أنه كان مؤلمًا جدًّا، إن لم يكن مخيفًا وقاسيًا؛ إذ إنني فطمت فجأة ودون سابق إنذار، وها أنا ذا أتصرف حيال غيابك كشخص مفطوم، ولكني لا أعرف كيف أغذي نفسي بأشياء أخرى بدلًا من ثدي الأم. وفي غياب من أحب - أنت - أكون، وبشكل حزين، صورة مجتثة، تنشف وتصغر وتتقلص.

يقول راهب بوذي: يضع المعلم رأس تلميذه تحت الماء لفترة طويلة، ثم تبدأ فقاقيع الهواء بالتناقص قليلًا، فيخرج المعلم رأس تلميذه

مـن الماء، وهو في حالة الرمق الأخير، وينعشـه قائلًا: عندما سـترغب في معرفة الحقيقة. كما رغبت في الهواء، ستدرك حينئذ ماهيتها.

وأنـت يضـع غيابك عني رأسـي تحت المـاء فأختنـق تدريجيًّا ويندر الهـواء، ومن خلال هذا الاختناق، أسـتعيد حقيقتي، وأحضر المسـتعصي في العشق فأدرك بما لا يدع مجالًا لأي شك أني وقعت أسير هواك يا سيدة النساء، يا من تئن عليك أحشائي.

***

فـي طريقه إلى بيته، أخذ ينظر إلـى المنطقة التي عاش فيها كل عمره، لا شيء تغير منذ أن تركها قبل ست سنوات، ياه، ست سنوات كاملة، حتى كشـك السـجائر الموجود على ناصية الشـارع.. مازال عـم صابر العجوز جالسًـا بداخله، يحدق في المارة بعينيه الضيقتين، اشـترى منه علبة سجائر ومشـط كبريـت، لم يعرفه رغم أنـه كان زبونًـا يوميًّا ويعرفه حـق المعرفة، لحظة دخوله حارته الضيقة كور قبضته وضرب بها الهواء، أخيرًا، ها هو ذا ينتصر على طريق العفن إلى الأبد، سـوف يواجه مشاكله منذ الآن، وسوف يحلها ولن يؤجل شـيئًا إلى الغد، لن يهرب مرة أخرى. ها هو ذا يقف أمام باب شقته الذي تغير لونه وأصبح جديدًا، طرق طرقًا خفيفًا أول الأمر دون أن يفتـح له أحد، طرق بشـدة فانفتـح الباب وظهر على عتبته شـابٌّ صغيرٌ فأصابته الدهشة مدة دقيقة، وانفكت عقدة لسانه، فسأله عن أصحاب الشقة، وذكر له اسم زوجته. هز الشاب كتفيه وتركه وغاب لحظات عاد بعدها مع والده، وعرف كل شـيء من الدقيقة الأولى، لقد أجَّرت زوجته الشـقة منذ

خمس سـنوات سـأله عن عنوانها فأنكر معرفته. ظل واقفًا على السلم أمام الشقة لا يدري ماذا يفعل، لم يفكر أبدًا فيما حدث، وأحس بأن دنياه تنهار، تذكر جاره في الشـقة المقابلة، ولكن هل مازال موجودًا؟ تسمر الرجل في مكانـه وظل يحدق فيه قبل أن يغيبه بين ذراعيه، ياه، لقد اختفيت فجأة وقد حسـبناك من الأموات، يا بني زوجتك ظلت تبحث عنك حتى ملت خاصة بعد أن أنجبت طفلكما أحمد، أنا الذي سـميته وكتبته باسـمك في السجل المدني، ويعلم الله أني ما تركتها حتى بعد أن حصلت على الطلاق غيابيًّا، وتقـدم للزواج منها واحد صاحبك تعرفه اسـمه أحمد الدبيكي أخذها بعد ذلك وسافرا لإحدى دول الخليج، وقد أوصتني أن أبحث عن ساكن للشقة وأن أحتفظ بالإيجار معي، كنا نحسبك ميتًا، سبحان الله.

***

الهروب الأخير

في طريقه خارج المنزل فكر قليلًا في وضعه المأساوي، وعلى الرغم منه فقد ابتسم وغمغم: يا حلاوة.

لقد أصبح الآن بلا مأوى، هجرته زوجته واعتبرته ميتًا، صديقه نائب الأحكام تزوج زوجته وهاجر هو وهي، هو الوحيد الذي كان يعرف طريقه، لقد تآمر عليه إذن حتى يدمر حياته ويفوز بزوجته، فكر أن يذهب لأخيه، لكنه كان يحس الآن بحجم المؤامرة يزداد اتساعًا، لعله شريك هو الآخر، لديه ابن عمره خمس سنوات الآن لا يعرف عنه شيئًا، وربما لن يراه أبدًا. تحسس جيوبه المليانة بالنقود، إيجار خمس سنوات أعطاها له جاره الطيب، يا بني دي أمانة وهي من حقك خذها تعينك على حياتك. فكر أن يستأجر شقة ويستقر ويبدأ حياة أخرى جديدة، لكنه اتجه إلى أقرب فندق. وحجز لنفسه غرفة، فقد أحس بالتعب، وأنه آن الأوان ليستريح.

***

فـي الصباح الباكر ارتدى ملابسـه ونزل متجها إلى مكتب السـنترال، في طريقه فكر في الخطاب الوحيد الذي أرسـلته ردًّا على كل رسائله، كان مختصرًا ومركزًا، ناشـدته أن يصبح واقعيًّا لمـرة واحدة فقط، وأن يفعل ما يجـب أن يفعله إذا أراد لنفسـه ولهـا الراحة، أن يحضر إليها وسـوف تقف بجانبه حتى يصبح جديرًا بها وبنفسه.

اتجـه إلى عامل الفاكس وقال له أريد إرسـال فاكـس. قال إلى لندن، وقال إلى سـلوى، وقال سـوف أصل إلى عندك بعد أسـبوع من الآن حالما تنتهي إجراءات السفر.

وقـرر أن يقضي اليوم متسـكعًا في وسـط البلد، فـلأول مرة يعرف ما يجـب عليـه أن يفعلـه، ولأول مرة يعرف أنـه قد اتخذ القـرار الصحيح في الوقت المناسـب؛ فسـوف تكون تلك هي محاولة الهروب الأخيرة، لكنها هذه المرة هروب إلى أرض الواقع، إنه الهروب نحو الشمس.

***

خيري عبد الجواد

بولاق الدكرور

في 4 / 8 / 2000

الساعة 11 صباح الجمعة

تنويـــه

اعتمدت في هذه الرواية على :

1- أشعار نزار قباني – منشورات نزار قباني – بيروت.

2- خريف الغضب – محمد حسنين هيكل – شركة المطبوعات والنشر – بيروت.

3- اغتيال رئيس – عادل حمودة – دار الشروق.

4- جريدة الأخبار – عدد 6 أكتوبر 1973م.

5- الواضح المبين في ذكر من استشهد من المحبين – للحافظ ملغطاي – دار الانتشار العربي – بيروت.

***